

## الفصل الرابع

### فترة الخِلافة

## ١ - العهد الذهبي للحكم الأندلسي :

تعود المؤرخون أن يجعلوا فترة الخلافة الأموية بالأندلس تبدأ باتخاذ عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة الناصر لدين الله ، سنة ٣١٦ هـ ( ٩٢٩ م ) وتنتهى بسقوط آخر أموي في قرطبة ، وقيام ابن جهور بالأمر سنة ٤٢٢ هـ ( ١٠٣١ م ) . وقد يكون المؤرخون على حق من الناحية الشكلية ؛ فهم يعنون بما هو رسمي ، والرسميات توجب ذلك فعلا ؛ لأن حاكم الأندلس قد لقب بالخليفة منذ تلك السنة التي حددوا ، ولأن الخلافة انتهت تماماً في التاريخ الذي ذكروا . غير أننا لانؤمن بالشكليات في الدرس الأدبي . ولا نأخذ بالرسميات أيضاً في هذا الدرس ، وإنما نعني فقط بما هو حقيقي ؛ لأنه هو الذي ينتظر منه تأثير في الأدب . ومن هنا نعتبر فترة الخلافة الحقيقية ، هي فترة عبد الرحمن الثالث <sup>(١)</sup> وابنه الحكم الثاني <sup>(٢)</sup> . أما ما تلا ذلك من زمن حتى قيام ابن جهور بالأمر في قرطبة فلم يكن للخلافة الأموية فيه إلا الاسم . على أن بعض هذا الزمن ، قد خلا تماماً من أي خليفة ، وكان الأمر فيه لآخرين كما سنبين ذلك في موضعه .

وإذن فالخلافة الحقيقية تتمثل في ذلك العهد الذي كان حاكم الأندلس حقيقة خليفة . وهذا العهد لا يعدو أيام عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني . والحق أن الأندلس شهدت في تلك الأيام عهد حكمها الذهبي ؛ فهي لم تعرف قوة نفوذ ، ولا هيبة حكومة . ولا عظمة حاكم ، كما عرفت في تلك الفترة . وكان ذلك أولاً بفضل عبد الرحمن الثالث الذي فعل الكثير من أجل خلافة أندلسية عظيمة ، ثم ابنه الحكم الثاني ، الذي سار على سنة أبيه في تدعيم هذه الخلافة .

(١) حكم من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ (٩١٢ إلى ٩٦١ م) .

(٢) حكم من سنة ٣٥٠ إلى ٣٦٦ هـ (٩٦١ إلى ٩٧٦ م) .

وقد تولى عبد الرحمن الثالث <sup>(١)</sup> أمر الأندلس بعد موت جده الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) ، في ظروف كلها قسوة وكلها أخطار ؛ إذ كانت البلاد في عهد الأمير عبد الله ، نهباً للطامحين والطامعين من عرب وبربر وإسبان ؛ حتى أصبح كثير من أقاليمها مستقلاً عن إمارة قرطبة أو كالمستقبل عنها . هذا بالإضافة إلى الثورات الداخلية والتهديدات الخارجية ، مما أوشك أن يذهب بالإمارة الأموية وربما بالحكم الإسلامى أيضاً .

تولى عبد الرحمن الثالث في تلك الظروف العصيبة ؛ وكان ابن اثنين وعشرين ربيعاً تقريباً ، فاستن سياسة الحزم والقوة والتضحية . وراح يتغلب على الأخطار العديدة في جرأة وذكاء .

وقد بدأ عبد الرحمن بالخارجين والثائرين داخل الأندلس فأخضعهم واحداً بعد الآخر ، وساعده الحظ بموت بعض هؤلاء الخارجين ، كابن حجاج المستقل بإشبيلية ، وابن جودي المستقل بقرطبة ؛ فقد ماتا قبيل تولى عبد الرحمن أمر الأندلس .

وهكذا لم تَمْضِ إلا سنوات ، حتى عادت أكثر أقاليم الأندلس موحدة تحت إمرة هذا القى الأموى القوى . غير أن إقليمين قد تأخرا بعض الوقت في الخضوع لعبد الرحمن . وهما : إقليم بُبَشْتَر الذى كان يسيطر عليه ابن حفصون ، وإقليم طليطلة الذى عرف بالثورات وكثرة الخروج . أما الإقليم الأول فقد تم إخضاعه تدريجياً ، إلى أن كانت السيطرة عليه آخر الأمر . فبعد موت ابن حفصون سنة ٩١٧ م دخل ابنه

(١) انظر في ترجمته وأعماله وعصره :

البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٣٤ وما بعدها .

وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ وما بعدها .

وأخبار مجموعة ص ١٥٣ وما بعدها .

حفص في طاعة عبد الرحمن . وظل آخرون من أبنائه على العصيان حيناً ؛ ثم مالبتوا أن هزموا وسقط حصنهم سنة ٩٢٨ م . وأما الإقليم الثاني - طليطلة - فقد شدد عبد الرحمن الحصار عليه ، وظل على هذا الحصار سنتين ؛ حتى لقد أقام على الجبل القريب من طليطلة حصناً سماه مدينة الفتح ، ليكون الحصار دائماً حتى تستسلم . وفعلاً استسلمت المدينة العنيدة الثائرة ، بعد أن أعيت ثورتها كثيراً من الأمراء قبل عبد الرحمن . هذا في داخل الأندلس ؛ أما في خارجها ، فقد كان في مواجهة الناصر خطران عظيمان ، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب . أما في الشمال فقد كان المسيحيون قد تقهقروا ، وصارت لهم بعض ممالك تهاجم الدول الإسلامية وتحرز عليها انتصارات ، وتجر على المسلمين كثيراً من الشر . وكانت مملكة ليون Leon ومملكة نافارا Navarra تمثلان هذا الخطر الشمالي .

أما في الجنوب فقد كانت الدولة الفاطمية الناشئة قد مكنت لنفسها في شمال أفريقيا ، وأقامت دولة قوية عاصمتها القيروان . وقد سارت جيوش الدولة الفاطمية غرباً ، واستولت على الشاطئ الإفريقي المقابل للأندلس ، وطردت الحكام المواليين لعبد الرحمن الناصر ، وأصبحت الأندلس مهددة بالخطر الفاطمي .

لكن هذا البطل الأندلسي لم يكن في سياسته الخارجية بأقل منه في سياسته الداخلية ، ولم تكن حملاته خارج الأندلس بأضعف من حملاته في داخلها ، فقد جرد الجيوش لتأديب المسيحيين الشماليين ومن انضم إليهم من الأندلسيين الخارجين . وهذه الحملات وإن أخفق أقلها ، فقد نجح أكثرها ، وأحرز عبد الرحمن بها انتصارات عظيمة . وقد كان يقود تلك الحملات بنفسه ، فملأ قلوب أعدائه رهبة ، وأفعم جنده ورعاياه إجلالاً ومحبة .

وقد بلغ من انتصار عبد الرحمن على نصارى الشمال ، أن تعهد له بعضهم بدفع

الجزية (١) ، واستعان به بعض آخر على تولي عرش مملكته (٢) ، كما سعوا إليه يقدمون بين يديه في قرطبة الولاء والخضوع .

وأما الخطر الفاطمي ، فقد عمل الناصر على رده بكل ما أوتي من ذكاء وأيد . فبنى الأسطول الأندلسي ، وجعله يراقب الشواطئ التي أخضعها الفاطميون ، ويحمي من عدوانهم شواطئ الأندلس . كما أرسل جيشاً كبيراً لاسترداد ما استولى عليه الفاطميون في العدو الإفريقية . واستطاع قواده أن يستردوا المغرب من فاس إلى المحيط ، وأن يعيدوا إلى الشاطئ الإفريقي النفوذ السياسي الأندلسي .

وبهذا استطاع عبد الرحمن أن يؤمن الأندلس من الخارج كما وحدها في الداخل ، وأن يوسع رقعة الدولة الأندلسية ، ويبسط نفوذها ، ويقم في قرطبة أعظم حكومة عرفتها الأندلس في عهدها المديد .

وقد عرفت الدول الأخرى قوة الخلافة القرطبية ، فسعت السفارات من ماوكها إلى الخليفة الأندلسي . وكان من أشهر تلك السفارات ، سفارة ملك الروم التي استقبلها الخليفة في قصر الزهراء ، كما استقبل به ملوك ليون ونافاراً في عظمة وجلال .

وهكذا استحق عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة ، الذي أمر أن يخاطب به بعد انتصاراته الباهرة ، وبعد أن أصبح فعلاً أقوى حكام الإسلام في ذلك الحين . ثم مات الخليفة العظيم سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) وخلفه ابنه الحكم الثاني (٣) ،

(١) مثل (توتا Tota) الوصية على عرش نافارا ، ويسمى العرب طوطة .

(٢) مثل (سانشو) Sancho ملك ليون . ويسمى العرب : سانجة بالسين وسانجة بالشين .

(٣) انظر في ترجمته وأعماله وعصره :

البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٨ وما بعدها .

وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ وما بعدها .

الذى على الرغم من عنايته البالغة بالكتب وجمعها ودرسها والتعليق عليها ، وعلى الرغم من كلفه بالفنون والآداب ، وميله إلى العلوم والفلسفات ؛ كان لا يقصر في المحافظة على هيبة الدولة السياسية وعظمتها الحربية .

وقد ظن به بعض ملوك المسيحيين ضعفاً أول الأمر . فحاول ملكا ليون ونافاراً أن ينكثا بالعهد الذى أعطياها للناصر ، ورفضاً تسلیم حصون كانا قد تعهدا بتسليمها للخليفة الراحل ، وانضم إليهما أمير قشتالة Castilla ، بل أغاروا على حدود الدولة الإسلامية . فأمر الحكيم قواده بتعبئة الجيوش ، ثم قاد الجند بنفسه ، وضرب « فرلند » Fernand أمير قشتالة المعتدى ضربة ساحقة ، اضطرت به إلى الفرار ، ثم عاد الحكيم إلى قرطبة بعد أن لقن أعداءه درساً قاسياً .

وفى قرطبة وفد عليه الأمير « أردون » Ordono الذى كان قد خلعه « سانجة » Sancho وخلفه فى ملك ليون ، بفضل مؤازرة عبد الرحمن الناصر . وعرض « أردون » على الحكيم الخضوع والولاء ، ورجاه المساعدة فى إعادته إلى عرشه بعد أن نكث « سانجة » بالعهد الذى كان قطعه للخليفة الأندلسى . وقد جهز الحكيم جيشاً لإعادة « أردون » إلى عرشه انتقاماً من ملك ليون الناكث بالعهد ، ولكن هذا الملك أسرع بإرسال وفد من نبلاء بلاده وكبار أساقفتها إلى الخليفة ، ليؤكد له العزم على الوفاء بالعهد ، والتمسك بكل ما كان بينه وبين الناصر من التزامات . فأعرض الحكيم عن تأييد « أردون » الذى مالبت أن مات بعد قليل .

ولكن موته شجع ملك ليون على النكث مرة أخرى ، فتجددت الحرب بين الحكيم وبين هذا الملك ، ولم يقصر الحكيم حربه على ملك ليون ، بل حارب كذلك ملك نافاراً وملك قشتالة ، وأخذهم الواحد بعد الآخر ، حتى اضطرتهم جميعاً إلى الخضوع وقبول ما أراد من شروط للسلم . وبهذا هدمت الحصون القريبة من حصون

المسلمين ، وتعهد الملوك المسيحيون ألا يساعدوا ثواراً وألا يتحالفا مع خارجيين ،  
وألا يعودوا لمحاربة الخليفة .

وهكذا أمن الحكم مسيحي الشمال ، وفرض هيئته وهيبته الدولة الإسلامية على تلك  
الأقاليم ، تماماً كما فعل أبوه الناصر من قبل .

أما الفاطميون ، فلم يعودوا في أيام الحكم مصدر خطر على الأندلس ؛ فقد فتحوا  
مصر ، وأسسوا القاهرة سنة ٩٦٩ م ، وانتقل إليها المعز لدين الله سنة ٩٧٢ م ، فشغلوا  
بذلك عن الأندلس .

غير أن المعز كان قد ترك نائباً عنه على إفريقية والمغرب ، وكان الأدراسة قد  
دخلوا في طاعة الفاطميين ؛ فأخذ أعوان الفاطميين يناوشون الأمراء المغاربة المواليين  
للحكومة الأندلس . فأرسل الحكم جيشاً إلى المغرب سنة ٩٧٢ م ، استطاع أن  
يحرز نصراً كبيراً على الأدراسة . وعاد إلى قرطبة سنة ٩٧٤ م ومعه أمراء الأدراسة أسرى .

وظلت الأندلس حتى وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ( ٩٧٦ م ) دولة قوية  
مهيبة ، شاسعة الرقعة موحدة الأقاليم ، مؤمنة الحدود ، كما كانت في عهد عبد الرحمن  
الناصر ، واستحقت تلك الفترة التي سعدت بحكم الناصر والمستنصر أن تسمى بالعهد  
الذهبي للحكم الأندلسي .

## ٢ - الأندلسيون في ظلال الرفاهية :

لم يعرف المجتمع الأندلسي وحدة كالتى عرفها في فترة الخلافة ؛ فقد كان منذ  
الفتح بين عوامل للتجميع وأخرى للتفريق ؛ حتى كانت الفترة السابقة للخلافة — وهى  
فترة الأمير عبد الله — فوجعت الفرقة الرهيبه التى أوشكت أن تفصم عرى الوحدة. بين  
أبناء الأندلس جميعاً . وكان من مظاهر تلك الفرقة ، أن عاد العرب يتكتلون ، وانقلب

الإسبان يتجمعون ، ورجع البربر ينفصلون ، وبرزت زعامات لهؤلاء وهؤلاء ، تؤيد الفرقة وتذكي نار العنصرية ، لتريح هي آخر الأمر الرياسة والسيطرة .

ولكن الحال تبدل في عهد الخلافة ، فقد استطاع عبد الرحمن الثالث أن يعيد إلى الشعب الأندلسي وحدته ، ففضى على الزعامات العربية التي كان يتكفل وراءها من ينتمون إلى العرب من أبناء الأندلس ، وقضى كذلك على الزعامات الإسبانية التي كانت معقد أمل الخارجين على النظام من مسلمي الإسبان المعروفين بالمولدين . كذلك أراح الأندلس من الزعامات البربرية التي كانت تثور بسكان الأندلس من أهل شمال إفريقيا ، وتستقل ببعض الأقاليم الأندلسية .

وهكذا رأت العناصر المكونة للشعب الأندلسي أن الخير كل الخير في ترك العنصرية جانباً ، فاندمجوا في المجتمع الأندلسي الكبير اندماجاً توحد معه هذا المجتمع وامتزجت عناصره ، واختفت منه — أو كادت — تلك العنصرية المختلفة ، من عربية وإسبانية وبربرية ، وبرزت بصورة واضحة قومية موحدة مؤتلفة هي القومية الأندلسية .

وقد أدت سياسة الناصر الحكيمة وانتصاراته الباهرة ، وحكمه المديد إلى شيوع الاستقرار ، واستتباب الأمن ، وانتشار الطمأنينة . وأدى ذلك كله إلى إقبال الناس على أعمالهم في جد ونشاط وأمل ، كما أنتج هذا جميعه وفرة في الدخل القومي ، وارتفاعاً في مستوى المعيشة ، ورخاء للدولة والأفراد جميعاً . وقد قيل : إن إيراد الدولة زاد زيادة عظيمة حتى بلغ مايجبي بالأندلس من الكور والقرى خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار ، كما بلغ مايجبي من الأسواق ونحوها سبعمائة وخمسة وستين ألف دينار <sup>(١)</sup> . وقيل كذلك : إن الناصر قد خلف في بيوت المال خمسة آلاف ألف ألف ألف ( ثلاث مرات ) <sup>(٢)</sup> .

(١) انظر : نفع الطيب للمقرى ج ١ ص ١٧٧ . والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٥

(٢) انظر نفع الطيب للمقرى ج ٢ ص ١٧٧ .

وكل هذا - على ماقد يكون فيه من مبالغة - يدل على ما وصلت إليه الأندلس من الرقي الاقتصادي في ذلك الحين .

ولم تعرف الأندلس نهضة عمرانية كالتى عرفتها في فترة الخلافة ؛ فقد كان الناصر مولعاً بالبناء ، محباً للتشيد ، كما كان يعتقد أن البنيان يخلد ذكر الباقيين ويبقى أسماءهم على الدهر . ومن هنا تم في عهده أروع ما عرفت الأندلس من قصور ومساجد ، ووصلت العاصمة القرطبية في فترة الخلافة إلى أوج جمالها وأناقتها وعمرانها ، فازدحمت بالقصور المشيدة . وزينت بالحدائق العديدة . وجملت بالنافورات الكثيرة ، وزودت بالحمامات الوفيرة . وقد قيل : إن مبانيها بلغت أكثر من خمسين ألف قصر للعظماء ورجال الدولة ، وأكثر من مائة ألف بيت للعامية . كما قيل : إن مساجدها بلغت تسعمائة ، ووصلت حماماتها سبعمائة (١) ، هذا في وقت كانت بعض دول أوروبا تعتبر النظافة رجساً من عمل الشيطان (٢) .

وكان أعظم أعمال الناصر الإنشائية ، مدينة الزهراء ، التى بناها (٣) في شمال قرطبة ، وجعل بها قصرأ للخلافة وبيوتاً لرجال الحكومة والبلاط ، ومساكن للحرس والجنود ، ومسجداً للصلاة والتعليم .

كان قصر الخلافة في هذه الضاحية القرطبية غاية في الجلال والجمال والفن ، وقد جلب الناصر أعمدة بنائه ورخامه ، وتمائيل زينتته ومواد زخرفته . من القسطنطينية وقرطاجنة وشمال أفريقيا ، علاوة على ما أنتجته مدن الأندلس .

(١) انظر نفع الطيب المقرئ ج ١ ص ٢١٣ وما بعدها ، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ ، وقصة العرب في إسبانيا تأليف « استانلى لين بول » ترجمة الأستاذ على الجارم ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) انظر المصدر الأخير .

(٣) بدأ في بنائها سنة ٣٢٥ هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ . والنفع ج ٢ ص ٢٤٦) .

وكان للخليفة في قصره بالزهراء مجلس يسمى بمجلس الذهب ، لكون قبة وحيطانه قد صفت بهذا المعدن النفيس . وقد جعل في هذا المجلس حوض عجيب ، أقيمت عليه تماثيل من الذهب المرصع بالدر النفيس ، وهي صور الأسد والغزال والتمساح والثعبان والعقاب والفيل والحمامة ، وكلها تجم الماء من أفواهاها في الحوض (١) .

وقد مست يد التجميل والتعمير مدناً أندلسية أخرى غير قرطبة ، كما شمل الرخاء والأمن والرفاهية غير القرطبيين من الأندلسيين ، وعاش المجتمع الأندلسي في فترة الخلافة عهده الذهبي من الناحية الاجتماعية . كما عاش في عهده الذهبي أيضاً من الناحية السياسية ؛ حتى لرى أبرع الصور وأروع الأمثلة عن حضارة الأندلسيين وتقدمهم الاجتماعي ، قد أخذت جميعها أو أخذ أغلبها على الأقل ، من حياة أهل الأندلس في فترة الخلافة .

### ٣ - نهضة الثقافة :

نهضت الثقافة الأندلسية في فترة الخلافة نهضة شاملة ، كان من مظاهرها انضاح الشخصية العلمية للأندلس ، بل قوة هذه الشخصية واستقلالها إلى حد كبير . وليس من شك في أن ظروف الأندلس في تلك الفترة قد ساعدت على هذه النهضة ؛ فالوحدة والاستقلال ، والأمن والرخاء ، والتحضر والرقى ؛ كل ذلك من شأنه أن يدفع إلى حياة ثقافية ناهضة ، ويساعد على مستوى علمي رفيع . وقد أتبع للأندلس في فترة الخلافة خليفتان وفرا للناس وحدة واستقراراً ، وحقاً لهم أمناً ورخاء ، ومكانهم من تحضر ورقى ؛ فأتاحا لهم كل ما من شأنه أن ينهض بثقافتهم ويرقى بعلمهم . بل إن هذين الخليفين لم يكتفيا بتهيئة الجواللثقافة والعلم ، وإنما دفعا بالأندلس دفعاً إلى نهضتها

(١) اقرأ ما قيل عن الزهراء في : نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ وما بعدها والبيان والمغرب ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

الثقافية الشاملة ، وذلك بتشجيع القادمين إلى الأندلس من علماء المشرق ، وجلب الكتب القيمة من شتى الأقاليم ، والحث على البحث والتأليف في شتى الفنون . فالناصر قد أحسن استقبال أبي علي القالي وأسند إليه تأديب ابنه الحكم ، ويمكن له ليعلم الأندلسيين في قرطبة <sup>(١)</sup> . وقد حمل القالي إلى الأندلس كثيراً من علم المشرق وأدبه ، ونقل بخاصة مجموعة ضخمة من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين <sup>(٢)</sup> ، مثل امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى والخنساء ، ومثل ابن أبي ربيعة وجميل وكثير والأخطل وجرير والفرزدق ، وكثير جداً غير هؤلاء وأولئك . هذا بالإضافة إلى كثير من كتب الأخبار واللغة ، مما أمد الحياة الثقافية الأندلسية في هذه الفترة بشحنة عظيمة من الزاد الدسم .

أما الحكم بن عبد الرحمن ، فقد ثبت أنه لم يولع خليفة بالكتب كما أولع ، ولم يجمع أمير منها مثل الذي جمع . وقد اشتهر بمكتبته الغنية التي بلغت أربعمائة ألف مجلد <sup>(٣)</sup> . وقد كان يحرص على جمع الكتب لها ويدفع فيها أغلى الأثمان ، كما فعل مع أبي الفرج الأصبهاني ، حين وجه إليه ألف دينار ليرسل إليه نسخة من كتاب الأغاني ، فبعث إليه بنسخة من كتابه قبل أن يظهر في بغداد <sup>(٤)</sup> .

وقد كان الحكم كذلك يشجع العلماء على التأليف ، ويقترح على المؤلفين بعض الموضوعات <sup>(٥)</sup> ، ويفسخ لهم مكاناً في القصر يخلون فيه للبحث وإنجاز ما عهد إليهم

(١) انظر ما قيل عن قدوم القالي إلى الأندلس في : نفع الطيب ج ٢ ص ٨٤ - ٨٦ وانظر ترجمته في : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٤ .

(٢) انظر فيما حمله القالي إلى الأندلس : الفهرسة لابن خير المجلد الأول ص ٢٩٥ وما بعدها .

(٣) انظر : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٤ - ١٨٦ ، وطبقات الأئم لصاعد الأندلسي ص ٦٦ .

(٤) المقرئ نفع الطيب ج ١ ص ١٨٠ .

(٥) كما اقترح على الخشني تأليف كتابه « قصة قرطبة » وكما اقترح على الزبيدي تأليف كتابه

« طبقات النحويين » .

من مؤلفات<sup>(١)</sup> . وهكذا كُتِبَ باقتراحه وتشجيعه كثير من الكتب في مختلف العلوم ، ولقى العلماء في ظله كثيراً من الإقبال والتكريم . ولذلك نهضت الأندلس علمياً في شتى الميادين . وتألقت فيها نابهون في كل فروع المعرفة التي تمثل الثقافة في ذلك الحين . وليس أدل على نهضة الأندلس العلمية في فترة الخلافة ، من وفرة العلماء والمؤلفات في أغلب فروع المعرفة ، تلك الوفرة التي لم تعرفها الأندلس من قبل والتي اتضحت معها الشخصية العلمية للأندلس واستقلت إلى حد كبير .

ففي الميدان اللغوي ، نرى أنه قد تأسست أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس ، وذلك بعد قدوم أبي علي القالي ، الذي وفد على الأندلس سنة ٣٤٠ هـ ( ٩٤١ م ) والذي ألف كثيراً في الدراسات اللغوية ، وأملى على طلبته الأندلسيين كتابه « الأملى » وفي هذه الفترة برز عدد من الأندلسيين في الدراسات اللغوية مثل : أبي بكر الزبيدي ، الذي عمل « مختصر كتاب العين » وألف كتاب « طبقات النحويين » و« كتاب لحن العامة » وكتاب « الواضح في العربية » وكتاب « الأبنية في النحو » . وكان مؤدباً للأمير هشام ابن الخليفة الحكم المستنصر<sup>(٢)</sup> .

ومن الأندلسيين الذين عرفوا بالدراسات اللغوية في فترة الخلافة أيضاً أبو بكر ابن القوطية ، الذي ألف « كتاب تصاريف الأفعال » و« كتاب المقصور والممدود » . وكان ابن القوطية من كبار علماء الأندلس في فروع علمية أخرى وخاصة التاريخ<sup>(٣)</sup> .

(١) كما فعل مع ابن الصفار ليؤلف كتاباً في أشعار خلفاء بني أمية بالشرق ( انظر جذوة المقتبس ترجمة ٥٣٣ ) .

(٢) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥١٤ ، وتاريخ علماء الأندلس لابن القرصى رقم ١٣٥٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٨٥ ، ٨٩ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٢ - ٥١٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٨٥ - ٨٩ ، وتاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣١٨ .

وفي الحقل التاريخي ، ظهر من علماء الأندلس في فترة الخلافة ، أحمد بن محمد بن موسى الرازي ، الذي كان يلقب بالتاريخي لكثرة اشتغاله بالتاريخ . وما ألفه في ذلك : كتاب في « أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم » ، وآخر في « أنساب مشاهير أهل الأندلس » ، وثالث عن « كبار الموالى الأندلسيين » ، ورابع في « صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها » . وقد ضاعت هذه الكتب كلها ، ولم يصل إلينا من مؤلفاته التاريخية إلا قطعة في صفة الأندلس ، وهي مترجمة إلى الإسبانية تحت عنوان « كرونیکا دل مورو رازيز » <sup>(١)</sup> Cronica del moro Rasis أى تاريخ المغربي الرازي .

كذلك كان من مؤرخي هذه الفترة . أبو بكر بن القوطية . الذي سبقت الإشارة إليه كلغوى <sup>(٢)</sup> . وقد خلف لنا في التاريخ كتابه المشهور « تاريخ افتتاح الأندلس » <sup>(٣)</sup> وهو يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية إمارة الأمير عبد الله .

وروح الكتاب تتفق مع روح ابن القوطية كحفيد للقوط أولاً ، وكبول لبني أمية ثانياً ؛ فنحن نراه يدخل في رواياته عنصراً قومياً كأخبار أرتباس مع الصميل ابن حاتم . وهي أخبار تظهر الأمير القوطي في صورة الرجل الموهوب الحميد الخلق ، على حين تصور الزعيم العربي أقل كثيراً من صورة الأمير القوطي . وكذلك نراه يتحدث عن الثائرين على العرب والخارجيين عليهم من ذوى الأصول الإسبانية ، كمروان

(١) انظر : Palencia : La literatura arabigo-espanola, p. 144 .

وانظر تاريخ الفكر الأندلسي ( وهو ترجمة الكتاب السابق ) ص ١٩٧ .

(٢) وهو حفيد سارة القوطية . حفيدة غيطشة ملك القوط قبل « رذيق » وكانت سارة قد بلّغت إلى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في دمشق لتشكو ظملاً وقع عليها ، فكرمها الخليفة وزوجها أحد مواليه ، فكان من سلالة عالمنا ابن القوطية . انظر ترجمته في : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي . رقم ١٣١٨ . وفي وثائق الأعيان ج ١ ص ٨١٢ - ٨١٣ . وفيما كتبه عنه النفع ج ٢ ص ٨٥ - ٨٦ .

(٣) وقد نشره « جايانجوس » وترجمه ( ريبيرا ) إلى الإسبانية سنة ١٩٢٦ ، كما كتب مقدمة دقيقة له .

الجليقي وعمر بن حفصون، كما يورد أخباراً عن الشاعر غريب المتعصب لقومه مستعربى طليطلة ، ثم نراه يحسن القول عن بني أمية في أغلب الأحيان ، وهذا أثر من آثار ولائه لهم<sup>(١)</sup> .

ومن الآثار التاريخية التي ظهرت في تلك الفترة أيضاً كتاب : « أخبار مجموعة »<sup>(٢)</sup> وهو لمؤلف مجهول ، ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى عهد عبد الرحمن الناصر . وروح الكتاب فيها ميل إلى العرب عامة وإلى قریش خاصة ، وإلى الأمويين من قریش بصفة أخص .

وقد ألف الكتاب في عهد عبد الرحمن الناصر كما يرى الأستاذ « ريبيرا » خلافاً للأستاذ « دوزي » الذي يرى أنه من تراث القرن الحادي عشر الميلادي<sup>(٣)</sup> .

وكان من المؤرخين كذلك في هذه الفترة ، عريب بن سعد ، الذي كان يعمل في خدمة الحكم المستنصر . ومن أشهر كتبه « صلة تاريخ الطبري » . وكان هذا المؤرخ الأندلسي طبيباً أيضاً ، ومن آثاره في الطب : كتاب في « خلق الجنين وتدبير الحبال والمولود » وهو مخطوط بمكتبة الإسكوريال<sup>(٤)</sup> .

كذلك اشتهر بكتابة التراجم بعض علماء تلك الفترة ، مثل أبي عبد الملك بن عبد البر القرطبي ، الذي ألف كتاباً عن « فقهاء قرطبة »<sup>(٥)</sup> ، هو من المصادر الرئيسية

(١) انظر : Julian Ribera : Prologo

(٢) وهي المقدمة التي صدر بها الترجمة الإسبانية لكتاب : تاريخ افتتاح الأندلس .

(٣) نشر الكتاب وترجمه إلى الإسبانية . « لافوتي أكتنرا » سنة ١٨٩٧ .

(٤) انظر : المقدمة التي كتبها « ريبيرا » لكتاب تاريخ افتتاح الأندلس . وانظر كذلك مقدمة أخبار مجموعة .

(٥) انظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٥) انظر : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي ترجمة رقم ١٢٠ .

التي اعتمد عليها ابن الفَرَضِيّ فيما بعد ، حين ألف كتابه « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس »<sup>(١)</sup> . كذلك كان من كتاب التراجم في فترة الخلافة ، أبو عثمان بن عبد البر الكشكشاني ، الذي صنف كتاباً عن « الفقهاء والقضاء بقرطبة والأندلس »<sup>(٢)</sup> .  
ومن عرفوا بكتابة التراجم في تلك الفترة أيضاً ، محمد بن هشام المرواني ، الذي صنف كتاباً في « أخبار الشعراء »<sup>(٣)</sup> .

ولكن ألمع شخصية بين كتاب التراجم في فترة الخلافة ، هي شخصية أبي عبدالله الحُشْبِيّ<sup>(٤)</sup> ، صاحب كتاب « تاريخ قضاة قرطبة »<sup>(٥)</sup> ، الذي ترجم فيه للقضاة في العاصمة الأندلسية من الفتح حتى سنة ٣٧٥ هـ .  
والكتاب يضم إلى جانب التراجم العديدة - التي تعرفنا بجمهرة من أهل القضاء والعلم في الأندلس - معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية .

ويقول عنه الأستاذ « ريبيرا » : إن هذا الكتاب يضعنا في قلب قرطبة ، وإن أخباره مصوغة في قالب من الواقعية التي لا يبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب التاريخ والأدب<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر المصدر السابق ص ٩ ، ١٣٠ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٦٢ ، وتاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٦٧ .

(٣) انظر : نفتح الطيب للمقرئ ج ٢ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) الحُشْبِيّ أصله من القيروان ، وقد وفد على الأندلس صغيراً ، وتخرج على بعض علمائها ثم دخل في خدمة الحكم المنتصر ، وألف له كثيراً من الكتب . اقرأ عنه في تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي ، ترجمة رقم ١٤٠٠ وفي : جنوة المقتبس للحمدي ترجمة رقم ٤١ .

(٥) نشره « ريبيرا » وترجمه إلى الإسبانية سنة ١٩١٤ . وأعاد السيد عزت المطار نشره . (بلا ترجمة)

سنة ١٩٥٤ .

(٦) انظر حديث « ريبيرا » عن الكتاب في المقدمة التي صدر بها النشرة والترجمة اللتين أذاعهما

سنة ١٩١٤ ، وانظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٧٦٧ - ٧٧٠ .

وأما في التفسير والحديث ، فقد نبغ كثيرون مثل ابن محاسن ، عثمان بن محمد ،  
الذي اشتهر بالتفسير<sup>(١)</sup> . ومثل ابن القوطية ، الذي سبق الحديث عنه كلغوى ومؤرخ<sup>(٢)</sup>  
كذلك اشتهر من علماء الأندلس في تلك الفترة ، ابن الحجاج يعيش بن سعيد ،  
الذي ألف مسند حديث بأمر الحكم المستنصر<sup>(٣)</sup> .

وأما في الفقه ومذاهبه ، فقد برع عديدون ، وكان أكثرهم من أعلام المذهب  
المالكي الشائع بين الأندلسيين على ما هو معروف . ومن هؤلاء الذين نبغوا في الفقه  
المالكي خلال فترة الخلافة : عبد الله بن أبي دليم ، الذي صنف كتاب « الطبقات فيمن  
روى عن مالك من أهل الأمصار »<sup>(٤)</sup> ، ومنهم يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثي<sup>(٥)</sup> .  
وهو حفيد الفقيه الأندلسي المعروف ، يحيى بن يحيى الليثي . ومنهم أيضاً أبو بكر بن القوطية  
الذي عرفناه لغويًا ومؤرخًا ومحدثًا .

على أن هناك فقهاء آخرين نبغوا في فقه غير الفقه المالكي ؛ وكان من أسباب  
ذلك ، تلك الحرية الفكرية التي أتاحت للعلماء في فترة الخلافة . فقد عُرف بالفقه  
الشافعي : عثمان بن أبي سعيد الكناني<sup>(٦)</sup> ، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم<sup>(٧)</sup> ، وأحمد  
ابن عبد الوهاب بن يونس ، الذي كان من المترددين على الحكم المستنصر<sup>(٨)</sup> . كذلك

(١) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضي ترجمة رقم ٩٠١ .

(٢) اقرأ عنه في المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٣١٨ .

(٣) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضي ، ترجمة رقم ١٦١٢ . وجنوة المقتبس للحمدي ترجمة رقم ٩١٥ .

(٤) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضي ، رقم ٧٠٧ . وتاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٢٠ .

(٥) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضي ، ترجمة رقم ١٥٩٧ .

(٦) المصدر السابق ، رقم ٨٩٢ .

(٧) اقرأ عنه في : تاريخ العلماء لابن الفرضي ، ترجمة رقم ٢٨٠ ، وفي جنوة المقتبس للحمدي ،

ترجمة رقم ٣٢٢ .

(٨) اقرأ عنه في : تاريخ العلماء لابن الفرضي ترجمة رقم ١٥٤ .

عرف من فقهاء الظاهرية : منذر بن سعيد البلوطي ، وكان قد درس في المشرق على كبار العلماء ، وعندما عاد إلى الأندلس ، أنكر تقليد مذهب مالك ؛ وكان يميل إلى مذهب داود بن خلف الظاهري ، ويحتج له . ولقد كان يلى قضاء لاردة وطُرُطُوشة ، ثم نال إعجاب الناصر ولفت نظره بخطبته البليغة في حفل استقبال سفير القسطنطينية ، فولاه الخليفة الصلاة والخطابة بمسجد الزهراء ، ثم ضم إليه بعد ذلك قضاء قرطبة<sup>(١)</sup> .  
والذي بلغ إليه منذر بن سعيد — على ظاهريته ومخالفته للمذهب المالكي الرسمي — يدل على مدى ماساد الأندلس في فترة الخلافة من حرية فكرية ، وما تمتع به العلماء من استقلال في الرأي مهما خالف هذا الرأي مذهب الحاكمين .

وأما الفلسفة ، فقد أخذت مكانها مرة أخرى بعد أن حورب ابن مسرة في الفترة السابقة ؛ فعادت مدرسته من جديد ، وشاعت مبادئه وآراؤه ، وعُرف بالانتماء إلى المدرسة المسرية كثير من أهل الفكر الأندلسيين ، ومن هؤلاء : طريف الروطي ، ومحمد بن مفرج المعافري ، ورشيد بن محمد ، وأبان بن عثمان . وقد كان الفضل في عودة مدرسة ابن مسرة إلى نشاطها يرجع إلى روح التسامح التي سيطرت على فترة الخلافة ، وخاصة أيام الحكم المستنصر<sup>(٢)</sup> .

وأما الطب ، فقد ازدهر في تلك الفترة ، ونبغ فيه أعلام من الأندلسيين . وقد كان من مهرة الأطباء في تلك الفترة : سعيد بن عبد ربه ، الذي كانت له طريقة خاصة في علاج الحميات<sup>(٣)</sup> . وأحمد بن يونس وأخوه عمر ، اللذان عُرفا بالمهارة في تحضير الأدوية والعلاج ، وخاصة علاج العين<sup>(٤)</sup> . وغير هؤلاء كثيرين ممن عرفوا أيام الناصر

(١) اقرأ ترجمته وبعض أخباره في : المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٤٥٤ ، وفي تفح الطيب للمقري ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٥ ، ٢٦٦ - ٢٦٩ ، ٢٣٠ - ٢٣٣ .  
(٢) تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣٣٠ .  
(٣) انظر : طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٤٦ .  
(٤) اقرأ عنهما في : طبقات الأئمة لصاعد الأندلسي ص ١٢٤ ، وفي طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٤١ .

والمستنصر<sup>(١)</sup> وذاعت شهرتهم ، حتى لقد كان بعض ملوك المسيحيين يلجأون إلى أطباء الأندلس ، لعلاج ما يستعصى من أمراضهم<sup>(٢)</sup> .

وأما الرياضيات فقد نبع فيها كثيرون ، مثل عبد الله بن محمد المعروف بالسري والذي كان الحكيم يعظمه . ومثل أبي بكر بن عيسى ، الذي كان يجلس للتعليم أيام الحكيم ، وكان مقدماً في الهندسة والعدد والنجوم<sup>(٣)</sup>

وهكذا نرى عدة ظواهر للحياة الثقافية في الأندلس خلال فترة الخلافة ، أولاها : تلك المشاركة الواضحة في أكثر فروع المعرفة ، بل ذلك النبوغ الملموس في أغلب ألوان الثقافة ؛ حتى لرى من أبناء الأندلس مبرزين في شتى العلوم والفنون ، ونجد لهم مؤلفات في مختلف فروع المعرفة . والظاهرة الثانية للحياة الثقافية في فترة الخلافة : شيوع الحرية الفكرية بصورة واضحة ، وتشجيع العلماء وإكبارهم ، على اختلاف ميولهم ومعارفهم ومذاهبهم . والظاهرة الثالثة المتصلة بالحياة الثقافية لتلك الفترة : إقبال كثير من الأندلسيين على العلوم الفلسفية والطبيعية ؛ حتى لتعد تلك الفترة بحق من الفترات المعدودات ، التي أتيح فيها للثقافة الأندلسية أن تتصل اتصالاً قوياً بالفلسفات والطبيعات .

وهناك بعد ذلك ظاهرة رابعة جديدة بالاعتبار ، وهي : الاتصال ببعض المعارف الإغريقية واللاتينية ، عن طريق الترجمة . فقد ترجمت عن هاتين اللغتين بعض الكتب مثل كتاب « ديسقوريدس » Dioscorides في الحشائش والأدوية ، وكتاب « هروسيس » Orosius في التاريخ . وقد وصل هذان الكتابان إلى الأندلس ضمن هدية بعث بها

(١) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) انظر : قصة العرب في إسبانيا « ترجمة الجارم » ص ١٠٩ ، ١١٠ .

وانظر : Palencia, Historia, p. 47 .

(٣) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص ٦٨ .

إمبراطور القسطنطينية «أرمانوس» إلى عبد الرحمن الناصر . وكان الكتاب الأول مكتوباً بالإغريقية ، وقد ترجمه في الأندلس راهب يسمى « نيقولا » قد أرسله الإمبراطور بناء على طلب الناصر . أما الكتاب الثاني فكان مكتوباً باللاتينية ، وقد ترجمه في الأندلس قاضي النصارى بقرطبة ، وقاسم بن أصبغ الأندلسي <sup>(١)</sup> . ولا يبعد أن يكون هناك كتب أخرى قد ترجمت عن هاتين اللغتين كما حصل لهذين الكتابين ، فقد توفرت لتلك الفترة كل الإمكانيات التي تشجع على ذلك ، من حرية فكرية ، وتحمس لجلب الكتب ، ووجود من يستطيعون الترجمة .

وأخيراً هناك ظاهرة خاصة تتصل بالحياة الثقافية لتلك الفترة ، وهي ظاهرة جديدة بالملاحظة ، لما لها من صلة وثيقة ببعض ماسرى من ظواهر أدبية . تلك الظاهرة هي : ظهور الروح القومية الأندلسية في الحياة الثقافية . وقد بدا ذلك واضحاً في العناية بجمع تراث الأندلسيين ، وكتابة تاريخ الأندلس ، والترجمة لأعلام هذه البلاد في شتى الميادين ، من شعراء وعلماء وقضاة ونحويين ، وغير هؤلاء وأولئك من أدباء ومفكرين . والمتتبع لمؤلفات تلك الفترة لا تخطئه تلك الملاحظة ، فسرى اتجاهها واضحاً إلى كل ما هو أندلسي ؛ ففي التاريخ الأندلسي يكتب ابن القوطية وغيره ، وفي رجال الأندلس يكتب خالد بن سعد <sup>(٢)</sup> ، وفي قضاة قرطبة يكتب الخشني ، وفي شعراء الأندلس تكتب عدة كتب ، منها في شعراء إقليم إلبيرة فقط نحو عشرة أجزاء <sup>(٣)</sup> ، كما يكتب ابن فرج كتابه « الحداثق » الذي يعارض فيه كتاب « الزهرة » لمحمد بن داود

(١) انظر في دخول هذين الكتابين إلى الأندلس ، وترجمة الأول منها : طبقات الأطباء لابن أبي

أصيعة ج ٢ ص ٤٧ : وانظر في ترجمة الثاني : ابن خلدون ج ٢ ص ٨٨ .

وانظر كذلك : طبقات الأطباء لابن جلجل تحقيق فزاد السيد (المقدمة) .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ج ١ ترجمة رقم ٢٩٨ .

(٣) انظر : نفح الطيب للمقرئ ج ٢ ص ١٣٣ .

الإصبهاني ويزيد عليه ؛ فقد ذكر ابن داود مائة باب في كل باب مائة بيت ، أما ابن فرج فقد ذكر مائتي باب في كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - نهضة الأدب :

نهض الأدب الأندلسي في فترة الخلافة نهضة عظيمة ، ساعد عليها ما كان من رقي سياسي وتفوق اجتماعي ونهوض ثقافي . وقد بدت نهضة الأدب الأندلسي خلال تلك الفترة في مظاهرة عديدة ؛ منها ظهور بعض الاتجاهات الجديدة في الشعر ، وبعض الأنواع الجديدة في النثر ، هذا بالإضافة إلى تطور الاتجاهات المعروفة ، وازدهار الأنواع المألوفة ، ووفرة النتاج الأدبي وخصوبته وتنوعه ، وشيوع الأدب بين الأندلسيين شيوعاً جعله من أبرز سمات الحضارة الأندلسية في ذلك الحين . وسوف يتضح كل ذلك بتناول نوعي الأدب تناولاً تفصيلياً .

#### أولاً - الشعر :

يمكن أن يلاحظ دارس الشعر الأندلسي في تلك الفترة عدة ظواهر ، منها ما يتصل بالاتجاهات الشعرية وما طرأ عليها من زيادة أو تطور ، ومنها ما يتعلق بالأفكار الشعرية وصلتها بالنهضة العلمية التي أظلت الأندلس في ذلك الحين ، ومنها ما يرتبط باللغة الشعرية وعلاقتها بالحياة اللغوية التي كان يحياها الأندلسيون في تلك السنين ؛ ثم منها ما يتصل بدور الشعر كفن يعبر عن الحياة ، ويؤدي وظيفة حيوية فيها . أما من حيث الاتجاهات الشعرية ، فأول ما يلاحظ هو :

#### ( أ ) ظهور الاتجاه المحافظ الجديد :

ويقصد به هذا الاتجاه الشعري الذي كان قد ظهر في الشرق كرد فعل للاتجاه المحدث الذي تزعمه أبو نواس ، والذي خرج بالشعر العربي عن كثير من تقاليدته ؛

(١) انظر : جعرة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ١٧٥ .

فجاء هذا الاتجاه المحافظ الجديد Neo clasico . ليعيد الشعر العربي إلى طبيعته العربية ، وذلك بالاقتراب من التقاليد الشعرية الماثورة ، والتخفيف من تلك الثورة المتمردة التي لجأ إليها المحدثون ، كل ذلك دون وقوف أو جمود عندما كان عليه الشعر القديم من بساطة وسذاجة وبداءة ، بل مع سير وتطور يفيدان الشعر مما وصلت إليه العقلية العربية من رقى ، وبما بلغت الثقافة العربية من نهوض ، وبما نعم به المجتمع العربي من حضارة .

ومن هنا جاء هذا الاتجاه محافظاً من جانب ومجدداً من جانب ؛ فهو محافظ في منهج القصيدة ولغتها وموسيقاها ، ثم في روحها وأخلاقياتها إلى حد كبير . وهو مجدد في معاني الشعر وصوره ، ثم في أسلوبه وجمالياته إلى درجة بالغة (١) .

فمن حيث المنهج ، يسير أصحاب هذا الاتجاه غالباً على الطريقة القديمة . في البدء ببيكاء الأطلال أو الافتتاح بالغزل التمهيدى ، ثم الانتقال إلى الغرض الأساسى الذى قد يسبق بوصف رحلة الشاعر ، وقد يتبع بالفخر بشعره .

ومن حيث اللغة يفضل أصحاب هذا الاتجاه الأسلوب القديم ، في الميل إلى جزالة اللفظ وفخامة العبارة .

ومن حيث الموسيقى الشعرية ، يؤثر أصحاب هذا الاتجاه الذوق القديم ، في حب الأوزان الطوال ذات النغم الوقور ، والقوافى القوية ذات الرنين الرزين .

ومن حيث روح الشعر العربى وأخلاقياته ، يغلب على أصحاب هذا الاتجاه البعد عن التطرف المتمرد وتلك الثورة الجارحة ، التى كانت تسخر من التقاليد وتجرح المواضع ، كما يغلب على أصحاب هذا الاتجاه أيضاً البعد عن الإفراط فى المحجون والمجاهرة بالعصيان والفخر بارتكاب الرذائل (٢) .

(١) لتكوين فكرة مفصلة عن خصائص هذا الاتجاه اقرأ : تاريخ الشعر العربى لنجيب البهيى ص ٤٨٥ وما بعدها ، وأبو تمام الطائى للمؤلف نفسه ص ١٨٤ وما بعدها ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى لشوقى ضيف ص ١٠٧ وما بعدها ، ومن حديث الشعر والنثر لطف حسين ص ٨١ وما بعدها .

(٢) انظر : من حديث الشعر والنثر لطف حسين ص ٨٥ .

أما من حيث معاني الشعر وصوره ، فقد كان أصحاب هذا الاتجاه يسيرون مسيرة المجددين ، في البحث عن المبتكر الرائع أو الغائب الطريف أو البعيد الشارد . ومن هنا كانوا يغيصون غوصاً على المعاني حتى يستخرجوها ، كما كانوا يشققونها حتى يستوعبوا كل أجزائها ، بل إنهم كانوا يعصرونها ويقطرونها حتى يحصلوا على أدق عناصرها وأهم محتوياتها .

وأما من حيث الأسلوب وجمالياته ، فقد كان أصحاب هذا الاتجاه يأخذون كذلك بطريقة المجددين ، في تجميل الصياغة بألوان من البديع وتوشيتها بصنوف من المحسنات ، وقد كان من أبرز تلك المحسنات المقابلة والطباق والجناس والتكرار .

وقد كان أبو تمام الشاعر المشرق الكبير ، من أوائل من ساروا في هذا الاتجاه ، وتبعه بعد ذلك البحترى وآخرون ممن عاصروهما أو جاءوا بعدهما ، حتى وصل هذا الاتجاه إلى غايته بعد ذلك مع أبي الطيب المتنبي ، الذي يمكن أن يعتبر قمة هذا الاتجاه المحافظ الجديد (١) .

وقد دخلت أصول هذا الاتجاه إلى الأندلس في الفترة السابقة ؛ فقد حدثنا الرواة أن نفرًا من الأندلسيين ممن عاشوا في فترة صراع الإمارة ، قد اتصلوا بأبي تمام ، وقرأوا عليه شعره ، ثم عادوا إلى الأندلس حيث أدخلوا هذا الشعر . وقد كان من هؤلاء أبو عثمان بن المثنى النحوى (٢) ، ومؤمن بن سعيد الشاعر (٣) . كذلك

(١) درج الباحثون على تسمية هؤلاء الشعراء بالمحدثين ، وهي تسمية عامة تطلق على الشعراء المجددين من أول بشار ثم أبي نواس ، إلى أبي تمام ومن عاصره وجاء بعده . ولما كان اتجاه الشعراء المجددين من أيام أبي تمام ومن سار في طريقه يخالف اتجاه المجددين من أيام بشار ومن حذا حذوه ، آثرت أن يقصر اسم محدث على الاتجاه السابق الذي راده بشار وانتهت غايته إلى أبي نواس ، وأن يطلق اسم محافظ جديد على الاتجاه اللاحق الذي بدأه أبو تمام وانتهت غايته إلى أبي الطيب .

(٢) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضي ترجمة ٢٤٩ ، والمغرب ج ١ ص ١١٢ .

(٣) انظر : المغرب ج ١ ص ٣٢ .

قد عرفنا ما كان من أبي اليسر الرياضى العالم الرحالة ، وإدخاله إلى الأندلس أشعار أبي تمام والبحترى فى الفترة السابقة (١) .

ومع هذا لانكاد نرى أثراً لظهور هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى أشعار الأندلسيين خلال فترة صراع الإمارة ، على حين نجد كثيراً من الآثار لظهوره فى فترة الخلافة التى نسوق عنها الحديث . ولعل السبب فى ذلك هو غلبة الاتجاه المحدث فى الفترة السابقة غلبة لم تترك حينئذ مكاناً للاتجاه المحافظ الجديد . وإنما غلب الاتجاه المحدث فى الفترة السابقة ، لما سبقت الإشارة إليه من أنه كان أكثر ملاءمة للتعبير عن واقع الأندلسيين الجديد المليء بالثورة والتعلق بالمظاهر الحضارية المحدثه .

وإنما ظهر هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى فترة الخلافة ، لأنه اتجاه مرتبط كثيراً بالاستقرار الحضارى والتعقل الاجتماعى والهدوء الثورى (٢) . فهو قد ظهر فى المشرق منذ أوائل النصف الثانى من العصر العباسى الأول ، بعد أن هدأت حدة الانبهار باللقاء الأول مع المستحدثات الحضارية ، وبعد أن شبع شعراء القرن الثانى ثورة وهواً ومجوناً ، وبعد أن جاء القرن الثالث وقد ألفت المجتمع العربى الحضارة ومستحدثاتها ، ولم يعد يجن بها فيفقد اتزانها ، كما فعل من قبل جيل أبى نواس .

وقد كان المجتمع الأندلسى فى فترة الخلافة قد ألفت الحضارة كذلك ، واستنفذ انبهاره ودهشته بالمستحدثات فى الفترة السابقة ؛ ولهذا بدأ كثير من الأندلسيين يهتمون بالاتجاه الشعرى المحافظ الجديد ويجدون فيه طريقاً فنياً ملائماً للتعبير عن حياتهم المتحضرة المستقرة المتعلقة .

ولعل من مظاهر هذا الاهتمام ما ذكره بعض الرواة من عناية الخليفة عبد الرحمن

(١) ارجع إلى صفحة ١٦٠ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : من حديث الشعر والنثر لعه حسين ص ٨٥ .

الناصر بشعر أبي تمام وتكليفه جماعة من العلماء والأدباء بانتساخه (١) .

ولعل من مظاهر هذا الاتجاه كذلك ما نراه من إقبال بعض مؤلّي فترة الخلافة على أشعار أعلام هذا الاتجاه من المشاركة ، كما فعل ابن عبد ربه في كتاب العقد ، حيث أورد شواهد عديدة من أشعار أبي تمام والبحرّى وابن المعتز .

وليس من شك في أن دخول ديوان المتنبي إلى الأندلس في فترة الخلافة ، كان من أهم العوامل التي زادت من اهتمام الأندلسيين بهذا الاتجاه المحافظ الجديد . فالمتنبي كان من أشهر شعراء العربية في عصره ، وكان اسمه يجلب في المغرب كما كان يملأ الأسماع والقلوب في المشرق ؛ فدخول شعره إلى الأندلس في فترة الخلافة ، قد أثار اهتمام الأندلسيين بالاتجاه الشعري الذي يسير فيه ، وبالمذهب الفني الذي يأخذ به . وقد كان دخول ديوانه إلى الأندلس ، عن طريق أهل المغرب الإسلامي ممن اتصلوا بأبي الطيب في المشرق ورووا شعره هناك ، ثم دخلوا به إلى الأندلس .

وفي مقدمة هؤلاء الذين نقلوا شعر المتنبي إلى الأندلس ، زكريا بن الأشج وهو جزائري الأصل ، كان قد التقى بأبي الطيب خلال إقامته بمصر ، ودرس عليه ديوانه ، ثم رحل إلى الأندلس حيث أذاع هذا الديوان (٢) .

ويبدو أن هذا الاتجاه المحافظ الجديد قد بدأ يطغى على الاتجاه القديم ، ويبدو كذلك أن الجمهور الأندلسي المثقف أصبح يؤثر هذا الاتجاه ويعتبره الصورة المثلى للشعر التقليدي ، ويؤيد ذلك ما يروى الزبيدي من أن الشاعر الأندلسي ابن يحيى الريحاني ، قد نظم قصيدة رثاء بناها على مذاهب العرب ، وخرج فيها عن مذاهب المحدثين (٣)

(١) انظر : طبقات النحويين للزبيدي ص ٣٥٦ .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ترجمة ٤٥٥ .

(٣) يستعمل الزبيدي اصطلاح المحدثين هنا بالمعنى العام الذي درج عليه الباحثون ، أي بما يشمل الاتجاه

الذي نسوق عنه الحديث .

فلم يرضها العامة (١) .

وهكذا ظهرت في فترة الخلافة أشعار أندلسية تسير في هذا الاتجاه المحافظ الجديد وتبدو فيها خصائصه في المنهج والروح ، واللغة والموسيقى . والأفكار والصور ، والصيغة والأسلوب . بل إن بعض أشعار الأندلسيين قد تأثرت بأشعار أعلام هذا الاتجاه من المشاركة ، فجاءت حيناً وفيها ومضات من ذكاء أبي تمام في تقطير المعاني والاهتمام بالبديع ، وحيناً نفحات من روح البحترى في تأليف الصور والعناية بالبيان ، ثم فيها مرة وثبات من ذهنية ابن الرومي في تحليله وتفصيله ، واستقصائه واحتجاجه ، ومرة لمسات من أناقة ابن المعتز ، في تشبيهاته المترفة ، وصوره المفضضة المذهبة ، وأخيراً فيها قبسات من عبقرية أبي الطيب في سيره للنفوس وتحليله للمشاعر وبلورته للتجارب .

على أن ذلك لم يكن — في الغالب — تقليداً من الأندلسيين لهؤلاء الأعلام المشاركة ، وإنما كان إعجاباً بالاتجاه الشعري أولاً ، ورغبة في إثبات مقدرتهم وتفوقهم ثانياً . وليس أدل على عدم التبعية والتقليد ، من أن الشاعر الأندلسي كان يجاهر بموازنة نتاجه بنتاج سابقه المشرقى ، حين يعالج موضوعاً عابجه ، أو يورد فكرة أورد مثلها ، أو يؤلف صورة رسم نظيرها .

وهذا ابن عبد ربه مثلاً ، يورد نماذج لأبي تمام وغيره من أعلام شعراء المشرق ، ثم يورد أشعاراً له في نفس الموضوعات أومع بعض الأفكار المتشابهة والصور المتقاربة (٢) ، وهو يشير بهذا العرض إلى مقدرته كشاعر أندلسي ، ويحاول إثبات تفوقه على هؤلاء الأعلام ، بل إنه أحياناً يصرح بهذا ، فيعلق بعد إيراد نموذج بما يدل على قصده إلى إثبات التفوق (٣) . فالمسألة إذاً لم تكن تبعية أوسرقة ، وإنما كانت معارضة وتحدياً

(١) انظر : طبقات النحويين للزبيدي ص ٣٩٩ .

(٢) انظر : المقدم الفريد في كثير من فصوله .

(٣) انظر : المقدم الفريد ج ٣ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

وليس معنى ذلك أن الأندلسيين لم يتأثروا بفن سابقهم ومعاصريهم من المشاركة ؛ فالحق أنهم تأثروا إلى أبعد حد ، ولكن هذا التأثير كان في الغالب تأثراً بالمذهب وتعلقاً بالاتجاه ، كما كان في أكثر الأحيان تأثر الأصلاء الواعين ، ذوى الشخصية المتفتحة القوية ، التى تضيف إلى ماتأثره كثيراً من ذاتها وفنها فتغنيه وتنميه .

وقد رأينا أن أهم جوانب هذا الاتجاه المحافظ الجديد أربعة ، وهى جانب المعانى والصور ، وما يجب أن تكون عليه من طرافة وغرابة وجدة ، قد تستدعى توليداً أو تشويقاً أو تقظيراً ، بل قد تستدعى المنطقة والتحليل ، والاحتجاج والاستدلال . ثم جانب الأسلوب ، وما ينبغى أن يحمل به من ألوان البديع وصنوف المحسنات ، وخاصة الجناس والطباق والمقابلة والتكرار . ثم جانب منهج القصيدة وما يغلب أن يتبع فيه من البدء ببيكاء الأطلال ، أو الغزل التمهيدى ، ثم الانتقال إلى الغرض الأساسى ، ثم الانتهاء بختام كثيراً ما يكون فخرأ بالشعر .

وأخيراً جانب اللغة والموسيقى ، وما يغلب أن يراعى فيه من الجزالة والفضامة والجلال .

وفما يلى عرض لبعض النماذج التى تؤيد ظهور هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى الشعر الأندلسى خلال فترة الخلافة ، كما تؤيد معرفة الشعراء الأندلسيين بآثار إخوانهم المشاركة من أعلام هذا الاتجاه ، وتأثرهم بهم تأثراً لم تلغ معه شخصيتهم الأندلسية .

فن النماذج المتصلة بجانب المعانى والصور ، قول ابن عبد ربه الأديب الأندلسى

فى القلم :

|                         |                         |
|-------------------------|-------------------------|
| بكفه ساحر البيان إذا    | أداره فى صحيفة سحرا     |
| ينطق فى عجمة بلفظنه     | نصم عنها ونسمع البصرا   |
| نوادر يقصر القلوب بها   | إن تستبها وجدتها صورا   |
| نظام درُّ الكلام ضمَّنه | سلكاً لخط الكتاب مستطرا |

إذا امتطى الخنصرين أذكر من  
 يخاطب الغائب البعيد بما  
 ترى المقادير تستدف<sup>(١)</sup> له  
 شخّت<sup>(٢)</sup> ضئيل لفعله خطر  
 يسمج<sup>(٣)</sup> فكأه ريقة صغرت  
 سحبان فيما أطال واختصرا  
 يخاطب الشاهد الذى حضرا  
 وتنفذ الحادثات ما أمرا  
 أعظم به فى ملمة خطرا  
 وخطبها فى القلوب قد كبرا<sup>(٤)</sup>

فابن عبد ربه يعالج نفس الموضوع الذى عالجها أبو تمام حين قال فى القلم :

لك القلم الأعلى الذى بشباته  
 لعاب الأفاعى القاتلات لعابه  
 له ريقة طل<sup>(٥)</sup> ولكن وقعها  
 فصيح إذا استنطقته وهو راكب  
 إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت  
 أطاعته أطراف القنا وتقرضت  
 إذا استغزر الدهن الجلى وأقبلت  
 وقد رفدته الخنصران وسددت  
 رأيت جليلا شأنه وهو مرهف  
 يصاب من الأمر الكلى والمفاصل<sup>(٦)</sup>  
 وأرى الجنى اشتارته أيد عوامل<sup>(٧)</sup>  
 بآثاره فى الشرق والغرب وابل  
 وأعجم إن خاطبته وهو راجل  
 عليه شعاب الفكر وهى حوافل  
 لنجواه تقويض الخيام الجحافل  
 أعاليه فى القرطاس وهى أسافل  
 ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل  
 ضئى<sup>(٨)</sup> وسمينا خطبه وهو ناحل<sup>(٩)</sup>

• • •

(١) تستدف تسهل وتستقيم .

(٢) شخت : دقيق غامر من غير هزال .

(٣) وردت هذه الأبيات فى العقد ج ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٤) الأرى : السمل ، والجنى ما يعنى والسمل أيضاً . واشتارته : استخرجه .

(٥) الضئى فى الأصل . المرض الخمار ، الذى كلما ظن البره منه عاد من جديد .

(٦) وردت هذه الأبيات فى ديوان أبي تمام ص ٢٥٧ . وذكرها ابن عبد ربه فى العقد ج ٢ ص ١٧٤ .

وليس يخفى سير الشاعر الأندلسي في نفس الاتجاه الذي سار فيه أبو تمام ، من حيث الغوص على المعنى الغريب ، والجهد في تأليف الصورة الطريفة . بل ليس يخفى تناول الشاعر الأندلسي لبعض معاني أبي تمام وصوره ، ومحاولة تجويدها بالإضافات والتعديلات ، مما وفق فيه حيناً وأخفق حيناً آخر .

فالقلم عند أبي تمام :

فصيح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل  
فهو ناطق في فصاحة إذا ركب أصابع الكاتب وبدأ يخط ، وهو أحرص  
أعجم إن كان راجلاً غير منمط لأصابع الكاتب . أما القلم عند ابن عبد ربه ، فإنه :  
ينطق في عجمة بلفظته نَصَمٌ عنها ونُسمع البصرا  
أى أنه ناطق في عجمته لاناطق إذا ركب وأعجم إذا لم يركب كقلم أبي تمام .  
ثم هو بعد ذلك ناطق عجيب ومتحدث من نوع غريب ؛ لأنه يسمع بالبصر لا بالسمع .  
والقلم عند أبي تمام ، يمتطي الأصابع الخمس ، أما عند ابن عبد ربه ، فيمتطى  
الخنصرين فقط . وهذا أقرب إلى الدقة . ثم هو عند ابن عبد ربه :

إذا امتطى الخنصرين أذكر من سحبان فيما أطال واختصرا

فهو فارس في ميدان البلاغة ، حيث يُذكر بفارس بلاغى هو سحبان . أما القلم  
عند أبي تمام فهو :

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهي حوافل

أطاعته أطراف القنا وتقوضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل

فهو ليس فارساً في ميدان البلاغة ، وإنما هو فارس في ميدان الطعن والضرب ،

فأطراف القنا تطيعه ، والجحوش تنهاوى أمامه كما تنهاوى الخيام أمام العاصفة .

ويلاحظ على بيت أبي تمام أولا عدم تلاؤم أجزاء الصورة في البيت الأول ، وهي صورة الراكب الذي تفرغ عليه الشعاب الحوافل ؛ ويلاحظ ثانيًا البعد الشديد بين الوصف والموصوف ، فالمتحدث عنه قلم ، وقد وصف بأنه فارس تطيعه أطراف القنا وتقوض لنجواه الجيوش تقويض الحيام . وليس من شك في أن تحويل القلم هكذا إلى فارس حقيقي ، أبعد عن الواقع من تصوير ابن عبد ربه له ، بأنه فارس في ميدانه الطبيعي ، ميدان البلاغة .

وإذا رأيت قلم أبي تمام :

رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ضننيّ وسمينا خطبه وهو ناعل

وأما القلم عند ابن عبد ربه ، فهو :

شخت ضئيل لفعله خطر أعظم به في ملمة خطرا

فكلا القلمين ضئيل ولكن أثره ضخيم ، غير أن قلم أبي تمام ناعل وخطره سمين ، وهذه — كما هو واضح — زيادة مفسدة ؛ قد دفع أبا تمام إليها حبه الشديد للمقابلة ، مما ورطه في وصف الخطب بالسمن .

والقلم عند أبي تمام :

له ريقة طلل ولكن وقعها بآثاره في الشرق والغرب وابل

أما القلم عند ابن عبد ربه فإنه :

يسج فكاه ريقة صغرت وخطبها في القلوب قد كبرا

فكلا القلمين يسج ريقة قليلة ، لكنها عظيمة الأثر . غير أن أبا تمام جعل هذه الريقة طلا حين يمجه القلم ، ثم يتضاعف أثرها فتصير وابلا . وهكذا يقدم الشاعر هذه الفكرة في صورة فنية تستمد عناصرها من الطبيعة . أما ابن عبد ربه فيقف بالفكرة .

عند تقديمها تقديمًا إخباريًا مباشرًا ساذجًا . وهذا مما قصر فيه الشاعر الأندلسي عن اللحاق بأبي تمام .

ومن النماذج المتصلة بجانب المعاني والصور كذلك ، وتأثرها بالأسلوب الجدلي القائم على الاحتجاج والاستدلال ؛ قول الشاعر الأندلسي ابن أبي عبدة <sup>(١)</sup> في الورد :

خضعتُ نواوير الرياض لحسنه      فتدللت تنقاد وهي شواردُ  
وإذا تبدى الورد في أغصانه      يزهو فذا ميتٌ وهذا حاسد  
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً      بطلوع صفحته فنعم الوافد  
ليس المبشّر كالمبشّر بأسمه      خبر عليه من النبوة شاهد  
وإذا تعرّى الورد من أوراقه      بقيت عوارفه فهن خوالد<sup>(٢)</sup>

فليس يخفى أن الشاعر الأندلسي يرد على ابن الرومي <sup>(٣)</sup> ، الذي كان يفضل النرجس على الورد في قوله :

خجلتُ حدود الورد من تفضيله      خجلا توردها عليه شاهد  
لم يخجل الورد المورد لونه      إلا وناحله الفضيلة عاند  
فصّلُ القضيّة أن هذا رائد      زهرَ الرياض ، وأن هذا طارد  
شتان بين اثنين ، هذا مُوعِد      بتسلُّب الدنيا ، وهذا واعد<sup>(٤)</sup>  
للنرجس الفضل المبين بأنه      زهر وتورّ ، وهو نبت واحد

(١) هو أبو الحزم جهور بن عبد الله بن أبي عبدة . ذكره ابن الأبار في : الحلة السراء وأشار إلى أنه كان من وزراء عبد الرحمن الناصر ، كما فيه إلى أنه غير ابن جهور رئيس قرطبة المتأخر الذي يبدأ بحكمه عصر الطوائف في العاصمة الأندلسية . انظر : الحلة السراء ص ١٣٢ - ١٣٧ .

(٢) وردت هذه الأبيات في المصدر السابق .

(٣) فيه ابن الأبار إلى ذلك في المصدر السابق .

(٤) وردت هذه الأبيات في ديوان ابن الرومي ص ٩٧٢ .

فابن أبي عبدة الأندلسي يتقضى أبيات ابن الرومي بأبيات علي وزنها وقافيتها ، ويرد حججه في تفضيل النرجس على الورد ، ويلجأ إلى التدليل والتعليل والجدل كما يفعل المتناظرون . فإذا قال ابن الرومي :

إن النرجس أفضل من الورد ، لأن النرجس زهرونور ، والورد زهر فقط ، رد ابن أبي عبدة بأن الورد برغم ذلك قد خضعت لحسنه نواوير الرياض ، فبدت أمامه ذليلة ، وولت من طريقه شاردة ؛ ودليل ذلك أن الورد إذا أقبلت أيامه وبدأ ، بدأت النواوير تصفر وتذبل ، بل إن كثيراً منها يموت .

وإذا قال ابن الرومي : إن النرجس يقود أزهار الرياض حين يسبقها إلى الظهور مبشراً بها ، وأن الورد على عكس ذلك ، إذ هو يطرد الزهور الأخرى ويأتي على أنقاضها وفرق بين المنذر بانتهاء الحياة وهو الورد ، والمبشر بقدمها وهو النرجس ؛ إذا قال ابن الرومي ذلك ، رد ابن أبي عبدة بأن النرجس حين يجيء قبل الورد ليس إلا مبشراً بقدمه ، والمبشّر به خبر من المبشر ، وفي النبوة دليل ذلك ؛ فالمسيح مبشّر بقدم محمد ، ومحمد أفضل من المسيح .

ومن النماذج المتصلة بجانب الأسلوب ، قول الشاعر الأندلسي أبي علي السناط<sup>(١)</sup> في حسناء :

|                              |   |
|------------------------------|---|
| غزاليّة العينين وردية الخدّ  | كثيبيّة الردفين غصنيّة القد                 |
| ثنت بثنتيها التّقى عن التّقى | وصدّ تصديها الرشيد عن الرشد                 |
| لها ناظر يعدو على القلب لحظة | ونخذ على لحظ النواظر يستعدى                 |
| تُزاني عيون الناظرين إذا رنت | بعين لها تزني وتُعنى من الخد <sup>(٢)</sup> |

(١) هو أبو الحسن بن حسان ، المعروف بالسناط . ذكره الحميدى في الجذوة ، وقال إنه كان في أيام الناصر ، وأنه متقدم مكثر . انظر : جذوة المقتبس ترجمة ٣٦٥ .

(٢) وردت هذه الأبيات في المصدر السابق .

فليس يخفى هنا أسلوب أصحاب هذا الاتجاه المحافظ الجديد من حيث تشابه المقاطع ، وتوازي الكلمات ، وتساوى الجمل ، كما في البيت الأول ؛ ومن حيث الاهتمام بالجناس ، حتى يأتي بعض الأبيات وبين كل كلمتين فيه جناس كما في البيت الثاني ؛ ومن حيث التكرار الذي يجعل عجزُ بعض الأبيات مؤلفاً من كلمات صدره مع تعديل بسيط كما في البيت الثالث . وهذا يذكرنا بالبحرَى في قوله :

وقدّ يكاد القلب ينقد دونه إذا اهتز في قرب من العين أو بعد<sup>(١)</sup>  
وقوله :

فَنُعمٌ ولم تنعم بنيل تعده وجُمُلٌ ولم تجمل بعارفة جمل<sup>(٢)</sup>  
وقوله :

وحسناء لم تحسن صنيعاً وربما صبوت إلى حسناء سيء صنيعها<sup>(٣)</sup>  
بل إن قطعة الشاعر الأندلسي تذكرنا أكثر بأبي تمام في قوله عن ديار الأحياب :  
تُطلّ الطلول<sup>(٤)</sup> الدمع في كل موقف وتمثل<sup>(٥)</sup> بالصبر الديار الموائل<sup>٥</sup>  
دوارس لم يحف الربيع ربوعها ولا مر في أغفائها<sup>(٦)</sup> وهو غافل  
فقد سحبت فيها السحاب ذيلها وقد أحملت<sup>(٧)</sup> بالنور فيها الحمائل

(١) ورد هذا البيت في قصيدة البحرَى التي مطلعها :

دعا عبرت تجرى على الجور والقصد أظن نسيما قارف المهجر من بعدى

(٢) ورد هذا البيت في قصيدة البحرَى التي مطلعها :

ضيان على عينيك أنى لا أسلو وأن فؤادى من هوى بك لا يخلو

(٣) ورد هذا البيت في قصيدة البحرَى التي مطلعها :

منى النفس في أسماء لو يستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها

(٤) تطلّ الدمع : تذهب هدراً

(٥) تمثل بالصبر : تتكل به كتمثل (بالتشديد) .

(٦) الأغفال : جمع غفل ، وهو ما لا علامة فيه من الطرق ، وما لا بناء فيه من الأرض .

(٧) أحمل القطيفة : جعل لها خلا ، وهو الهدب .

ومن النماذج المتصلة بمنهج القصيدة ، ميمية ابن هاني الأندلسي في مدح المعز لدين الله الفاطمي ، حيث يبدأ بالغزل التمهيدى فيقول :

أصاغت ففالت وقعُ أجردَ شَيْظَمٍ . وشامت ففالت لمعُ أبيضِ مِخْدَمٍ (١)  
وما ذُعرتُ إلا يجرس حليها . ولا لحت إلا بُرّي في مُخْدَمٍ (٢)  
ولا طعمت إلا غِراراً من الكرى . حذار ككَلُوهُ العين غير مهومٍ (٣)  
حِذارَ فتى يلقى الغيور بحتفه . ويمرق تحت الليل من جلد أرقم

إلى أن ينتقل إلى المدح فيقول :

ألا ليت شعرى هل يروع خيامها . عِثارُ المِذَاكِي (٤) بالقنا المتحطم  
فلو أننى أسطيع أنقلت خدرها . بما فوق رايات المعز من الدم  
من اللاء لا يصدرن إلا روية . كأن عليها صبغ خمر وعَتْدَمٍ (٥)  
كأن قناها المُلْد وهي خوافتى . قدود المها في كل رَيْطٍ مسَهْمٍ (٦)

ثم يبالغ في وصف المدوح فيقول :

وروح هُدَى في جسم نور يمده . شعاع من الأعلى الذى لم يجسم

(١) أصاغت : أنصت . والأجرد : الفرس القصير الشعر . والشَيْظَم : الطويل الجسم الفتى . وشامت : تطلعت . ومخدم كنبير : من صفات السيف القاطع ، ويطلق عادة على سيف الحارث بن أبي شمر .

(٢) البرى : جمع برة ، والبرة : الخللخال . والمخدم : موضع الخللخال من الرجل .

(٣) الفرار : التقليل من النوم وغيره . وكلوه العين : يقظها الذى لا يغلبه النوم ، والمهوم : من هز رأسه

من الناس ..

(٤) المذاكى من الخليل : المكتملة ، وأصله التى أتى عليها بعد قروحها سنة أو ستان .

(٥) العندم : دم الأخوين أو البقم .

(٦) المها : جمع مهاة ، وهى البقرة الوحشية . والرَيْط : جمع ربيعة ، وهى الملاءة . والمههم :

المخطط .

ومتصل بين الإله وبينه  
إذا أنت لم تعلم حقيقة فضله  
على كل نخذ من أسارير<sup>(٢)</sup> وجهه  
فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه  
وأخيراً يختم القصيدة بقوله :

وعندى على داني اللقاء وبُعدِه  
إذا أشأمتُ كانت لبانة معرق  
تطاولُ عن أقدار قوم جلاله  
وأى قوافي الشعر فيك أحوكها  
ولو أن عمري بالغ فيك همي  
أسىء ظنوني بالثناء وأنتحى .  
كمن لام نفساً وهي غير ملومة  
ولما تلتكت المواسم آنفا  
ليعلم أهل الشرق والغرب أنني

قصائد تسرى كالجمان المنظم  
وإن أعرفت كانت لبانة مشم<sup>(٣)</sup>  
وتصغر عن قدر الإمام المعظم  
وما ترك التنزيل من متقدم  
لبقيتُ حياً ألف عام محرم  
لذم ثنائى وهو غير مذمّم  
وأقحم ظناً وهو ليس بمقحم  
تربصتُ حتى جئتُ فرداً بموسم  
بنفسى لا بالوفد كان تقدى

ومن النماذج المتصلة بلغة القصيدة وموسيقاها ، هذه القصيدة التي سبقت بعض أجزاء منها ، ثم كثير غيرها مما قاله ابن هاني بخاصة ، حيث يتضح جلياً إثارة اللفظة الجزلة والعبارة الفخمة والموسيقى الجليلة ، مما يذكرنا بأبي تمام والمتنبي .

ومن الظواهر التي تتصل بالاتجاهات الشعرية كذلك في فترة الخلافة :

(١) مر : شديد الفتل .

(٢) الأسارير : محاسن الوجه .

(٣) أشأمت : توجهت إلى الشام ، وأعرفت : توجهت إلى العراق . واللبانة : الحاجة .

## (ب) تطور الاتجاهات السابقة :

ونعني بها تلك الاتجاهات التي عُرِفَت في الأندلس قبل الاتجاه المحافظ الجديد، وهي : الاتجاه المحافظ ، والاتجاه المحدث ، والاتجاه الشعبي . أما الاتجاه المحافظ فقد كان تطوره يتمثل في الذوبان تدريجياً في الاتجاه المحافظ الجديد ، الذي أخذ يحل محله ويؤدى وظيفته في التعبير عن تلك الأغراض التقليدية من مدح وفخر وثناء وحماسة ، وما إلى ذلك . ولم يعد لهذا الاتجاه المحافظ بصورته القديمة مجال كبير بعد أن تعلق الأندلسيون بالاتجاه المحافظ الجديد ، واعتبروه الصورة المثلى للشعر التقليدى . وأغلب الظن أن هذا المجال الضيق الذى انحصر فيه الاتجاه المحافظ أصبح يتمثل في أوساط الرواة واللغويين وأمثالهم من المنتشبين بطرائق العرب القدماء في التعبير . أما الشعراء والجمهور المثقف فقد كان الاتجاه المحافظ الجديد هو أمثل الاتجاهات الشعرية التقليدية عندهم وآثرها لديهم . ولعل مما يؤيد هذا ما سبقت الإشارة إليه من قول الزبيدي : إن الرياحى نظم قصيدة رثاء بناها على مذاهب العرب وخرج فيها عن مذاهب المحدثين فلم يرضها العامة (١) .

وأما الاتجاه المحدث فقد بقى نامياً مزدهراً لبقاء دواعى نموه وازدهاره ؛ فلا تزال الحياة الأندلسية برغم تعقلها واستقرارها من جانب ، تعج بكثير من التحرر وعدم المحافظة من جانب آخر ؛ فالخمر شائعة بين الأندلسيين شيوعاً يجزع معه الخليفة المستنصر ، ويدعوه إلى الأمر بإزالتها والهم باجتماع كرومها ، لولا أن يُنصح بالعدول عن ذلك لعدم جدواه ؛ فإن الأندلسيين - كما قيل للمستنصر - سوف يستخرجون خمرتهم من أى شيء آخر إذا اجتمعت الكروم (٢) .

(١) انظر : طبقات النحويين للزبيدي ص ٢٩٩ . والمراد بالمحدثين ما يشمل الاتجاه المحافظ الجديد .

(٢) انظر : جنوة المقتبس ص ١٢ ، ١٤ .

ويعبر عن مشاعر كثير من الأندلسيين في تلك الفترة الشاعر الرمادي<sup>(١)</sup> ، بقصيدته التي تمثل الاتجاه المحدث : في موضوعها الخمرى ، وأسلوبها القصصى ، وروحها التحررى ، وذلك حيث يقول في موقف المستنصر من الخمر :

يَخْطُبُ الشَّارِبِينَ يَضِيقُ صَدْرِي      وَتُرْمِضُنِي<sup>(٢)</sup> بِلَيْتِهِمْ لَعْمَرِي  
 وَهَلْ هُمْ غَيْرُ عَشَاقٍ أَصِيبُوا      بِفَقْدِ حَبَائِبٍ وَمَنُوا بِهَجْرِ  
 أَعْشَاقِ الْمَدَامَةِ إِنْ جَزَعْتُمْ      لِفِرْقَتِهَا فَلَيْسَ مَكَانَ صَبْرِ  
 سَمِعِي طُلَّابُكُمْ حَتَّى أَرِيقَتْ      دَمَاءَ فَوْقِ وَجْهِ الْأَرْضِ تَجْرِي  
 تَضَوِّعُ عَرْفَهَا شَرْقًا وَغَرْبًا      وَطَبَّقَ أَفْتَى قَرْطَبَةَ بِعَطْرِ  
 قَتَلَ لِلْمَسْفُوحِينَ لَهَا بِسَفْحِ      وَمَا سَكَنَتْهُ مِنْ ظَرْفِ بَكْسَرِ<sup>(٣)</sup>  
 وَلِلْأَبْوَابِ إِحْرَاقًا إِلَى أَنْ      تَرَكْتُمْ أَهْلَهَا سَكَانَ قَفْرِ  
 تَحْرِيمِ بِذَلِكَ الْعَدْلِ فِيهَا      بِزَعْمِكُمْ ، فَإِنْ يَكُ عَنْ تَحْرِ  
 فَإِنْ أَبَا حَنِيفَةَ وَهُوَ عَدِلُ      وَفَرَّ عَنِ الْقَضَاءِ مِيرَ شَهْرِ  
 فَفِيهِ لَا يَدَانِيهِ فِقِيهِ      إِذَا جَاءَ الْقِيَاسُ أُنَى بَدْرِ  
 وَكَانَ مِنَ الصَّلَاةِ طَوِيلِ لَيْلِ      يُقَطِّعُهُ بِلَا تَغْمِيضِ شَفْرِ  
 وَكَانَ لَهُ مِنَ الشُّرَّابِ جَارِ      يُوَاصِلُ مَغْرِبًا فِيهَا بِفَجْرِ  
 وَكَانَ إِذَا انْتَشَى غَنَى بِصَوْتِ السَّمْضَاعِ بِسَجْنِهِ مِنْ آلِ عَمْرٍو<sup>(٤)</sup>

(١) من الشعراء الذين عاشوا صدر حياتهم في فترة الخلافة ، وسوف نترجم له في الفترة التالية التي عاش فيها أكثر حياته .

(٢) أرضه : أوجعه وأحرقه .

(٣) المسفح : من عمل عملا لا يجدى عليه . والسفح : الإراقة . وظرف الخمر : وعازها .

(٤) يشير إلى عبد الله بن عمرو بن عثمان الأموي العرجي الشاعر . وكان قد شيب بجدهاء أم محمد

ابن هشام بن إسماعيل خال هشام بن عبد الملك ، ليفضح ولدها الذي كان والى مكة ، فسجنه تسع سنين إلى أن مات .

« أضاعوني وأى فتى أضاعوا  
فغيب صوتَ ذاك الجارِ سجن  
فقال وقد مضى ليل وثنان  
أجارى المؤنسى ليلاً غناءً  
فقالوا : إنه فى سجن عيسى  
فنادى بالطويلة وهى مما  
ويمم جاره عيسى بن موسى  
وقال : أحاجة عرضت فأنى  
فقال : سجت لى جاراً يسمى  
بسجنى حين وافقه اسم جار الـ  
فأطلقهم له عيسى جميعاً  
فإن أحببت قل لجوار جار  
فإن أبا حنيفة لم يؤب من  
نواقعها من اجل النهى سرّاً

ليوم كرهية وسداد ثغراً<sup>(١)</sup>  
ولم يكن الفقيه بذلك يدرى  
ولم يسمعه غنى : ليت شعرى  
لخير قطع ذلك أم لشر  
أتاه به المحارس وهو يسرى  
يكون برأسه بلليل أمر  
فلاقاه بإكرام وبر  
لقاضيهما ومتبعهما بشكر  
بعمرى ، قال : يطلق كل عمرو  
فقيه ، ولو سجتهم بوتراً<sup>(٢)</sup>  
لجار لا يبيت بغير سكر  
وإن أحببت قل لطلاب أجر  
تطلبه تخلّصه بوزر  
وكم نهى نواقعه بجهر<sup>(٣)</sup>

والحب الشاذ كان مألوفاً كذلك بين كثير من الأندلسيين ، حتى لرى الغزل  
بالمذكور لا يقتصر على مجالات اللهو والمجون فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى أكثر المجالات  
وقاراً واصطناعاً للجد ، وهو مجال مدح الخليفة . فقد أثرت بعض مدائح عن شعراء  
من تلك الفترة ، مقدمة بغزل شاذ ، مما يدل على أن هذا النوع من الغزل قد بلغ من  
الشيوع والإلف درجة لم يعد معها مستنكراً حتى فى مقام مدح الخليفة نفسه . ومن أمثلة

(١) هذا البيت للعرجى .

(٢) الوتر : الثأر .

(٣) انظر هذه الأبيات فى جذوة المقتبس للحيللى ص ١٤ ، ١٥ .

ذلك قول إسماعيل الكاتب في مقدمة قصيدة له يمدح بها الناصر :

لَطُفْتُ أَنَامِلَهُ بِعَقْرِبِ صَدْعِهِ      عَمْدًا لِيَلْدَغَ فِي فَوَادِ الْعَاشِقِ  
وَكَأَنَّ شَارِبَهُ هَلَالِ طَالِعِ      قَدْ خَطَهُ بِالْمَسْكَ أَحْذَقَ حَازِقِ  
وَكَأَنَّمَا يَجْبِينُهُ شَمْسُ الضُّحَى      قَدْ قَسْنَعَتْ بِظِلَامِ لَيْلِ غَاسِقِ  
وَكَأَنَّ وَجْتَهُ أَزَاهِرُ رَوْضَةِ      يَنْدَى بِهَا السُّوسَانَ فَوْقَ شَقَائِقِ  
فَإِذَا تَلَفَّتْ قَلَّتْ صُورَةُ دَمِيئَةٍ      وَإِذَا تَبَسَّمَ قَلَّتْ خَطْفَةُ بَارِقِ  
يَا غَايَةَ الْحَسَنِ الَّذِي هُوَ غَايَتِي      كَيْفَ احْتِمَالِي فِي فَوَادِ خَافِقِ  
حُكْمَ الْإِلَهِ بِمَا تَرَاهُ فَمَا أَرَى      مِنْ حِيلَةٍ فِي دَفْعِ حُكْمِ الْخَالِقِ  
قُلْ لِلْخَلِيفَةِ مِنْ أُمِيَّةٍ وَالَّذِي      مَا دُونَ فَيْضِ نَوَالِهِ مِنْ عَائِقِ  
أَنْسَيْتَ مِنْ مَنْصُورِهَا وَرَشِيدِهَا      وَفَضَّحْتَ مِنْ مَهْدِيَّتِهَا وَالْوَائِقِ (١)

والطبيعة الأندلسية كانت كما هي دائماً ، فاتنة تنصدي لعيون الشعراء ، فتشخذ قرائحهم وتغري شاعريتهم ، وتلهمهم لوحات شعرية هي من خير ماخطت أقلام الأندلسيين . وقد بلغ من افتتان الأندلسيين منذ فترة الخلافة بالطبيعة ، أن بدأوا يخلدّون بعض أشعارهم فيها مما كان يخالطها من حديث عن الخمر أو اللهو ، وصاروا يجعلون موضوع الطبيعة في كثير من الأحيان موضوعاً مستقلاً ، يقصد لذاته ويتحدث عن الطبيعة فيه حديثاً خالصاً . ومن ذلك قول عبيدالله بن يحيى (٢) في الورد وقصر مدته :

تَخَلَّتْ مِنَ الْوَرْدِ الْأَلْيَقِ حَدَائِقُهُ      وَبَانَ حَمِيدَ الْأَنْسِ وَالْعَهْدِ رَائِقُهُ  
أَقَامَ كَرَجِجَ الطَّرْفِ لَمْ يَشْفِ غَلَّةُ      وَلَمْ يَرَوْ مَشْتَاقَ الْجَوَانِحِ شَائِقُهُ  
فَمَا كَانَ إِلَّا الطَّيْفُ زَارَ مُسَلِّمًا      فَسَرَّ مَلَاقِيهَ وَسِئَاءَ مَفَارِقُهُ

(١) وردت هذه الأبيات في : أخبار مجموعة ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) ذكره الحميدى في الجذوة وأشار إلى أنه كان وافر الأدب كثير الشعر جليلا ، وأنه كان في أيام

الناصر . انظر : الجذوة ترجمة ٥٢٢ .

على الورد من إلف التصابي تحية وإن حرمت إلف التصابي علائقه<sup>(١)</sup>

والتطور الملحوظ الذى طرأ على الاتجاه المحدث فى فترة الخلافة ، هو أن حدة المحجون فيه قد خفت ، فأصبحت المجاهرة بالمعاصى شيئاً لا أثر له تقريباً ، كما صار الاستخفاف بالمواضع الاجتماعية والأخلاقية المرعية مما لا يكاد يحس فى شعر السائرين فى هذا الاتجاه المحدث ؛ فقد حل محل المجاهرة بالمعاصى والاستخفاف بالمواضع والأخلاق ، تجويد الشعر وصلفه ، والتفنن فى معانيه وصوره ، والاحتجاج لما تضمنه من أفكار وآراء . وهكذا سترت الجوانب الفنية غالباً ما قد حواه الشعر من مجون وماصوره من لهو .

وأما الاتجاه الشعبى ، فقد اشتد عوده ، حيث اتجه إليه كبار الشعراء فى تلك الفترة ، واتخذوه فى بعض الأحيان إطاراً لتجاريتهم .

فقد أخبرنا مؤرخو الموشحات أن ابن عبد ربه والرمادى كانا من الوشاحين ، وابن عبد ربه من أكبر شعراء فترة الخلافة ، والرمادى كذلك من أكبر الشعراء الذين عاشوا الجزء الأول من حياتهم فى نفس الفترة . وليس من شك فى أن اتجاه شاعرين كبيرين كهذين إلى الموشحات . مما يقوى عودها ويدفعها فى سبيل تطورها ونموها ، وهذا ما حدث ؛ فقد حدثنا الرواة كذلك عن تطور أحرزته الموشحات على يد الرمادى ، فذكروا : أنه أول من صنع التضمين فى المراكيز<sup>(٢)</sup> . ولعل المراد بهذا أن الرمادى أول من ضمن الخرجات أجزاء من الأغنيات الشعبية الأندلسية ؛ أو من الأمثال والحكم الشائعة ، أو نحو ذلك مما يصدق عليه التضمين .

وبرغم أن الرمادى قد عاش أكثر حياته فى الفترة التالية ، فالمرجح أن يكون هذا التطوير الذى أدخله على الموشحات قد حدث فى فترة الخلافة التى نسوق عنها الحديث ،

(١) وردت هذه الأبيات فى الجنبوة ص ٢٥١ .

(٢) انظر : مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ والفخيرة لابن بسام ق ٢ م ١ ص ٢٠١ .

وذلك لأن هذه الفترة كانت أكثر حرية من الفترة التالية ، والحرية بجوها الرحب هي التي تتيح لشاعر كالرمادى أن يتجه إلى هذا الاتجاه الشعبي أولاً ، وأن يطور فيه ثانياً . ومع الأسف لم يُعثر إلى الآن على موشحات من تراث تلك الفترة ؛ ولعل السبب اعتبار الرواة ومؤرخي الأدب الأقدمين هذا الفن الشعري فنّاً سوقياً لا يستحق التسجيل ، وقد صرح بذلك ابن بسام أول من كتب عن الموشحات من الأقدمين (١) .

هذا ما يتعلق بالاتجاهات الشعرية وما أضيف إليها من زيادات ، ومطراً عليها من تطورات . وأما من حيث الأفكار الشعرية وصلتها بالنهضة العلمية التي أظلت الأندلس في فترة الخلافة ، فيلاحظ على بعض النماذج الشعرية :

### ( ح ) تسرب بعض الأفكار العلمية :

ولسنا نعني بذلك نظم الحقائق العلمية في منظومات يسهل حفظها ، وإنما نعني معالجة بعض القضايا معالجة شعرية تشتمل على أفكار واصطلاحات من ميدان العلم لامن ميدان الفن . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ، تلك الأبيات التي يوجهها ابن عبد ربه إلى الفلكي أبي عبيدة (٢) ، مناقشاً إياه في بعض القضايا الجغرافية الفلكية . ورافضاً آراءه في كل ذلك :

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٢ .

(٢) هو مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة لكونه كان مولماً بالتشريق في قبلته . وكان عالماً بالحساب والنجوم . ترجم له ابن الفرضي في تاريخ العلماء وقال إنه توفي سنة ٢٩٥ هجرية . وترجم له الحميدي في الجذوة والضبى في البنية ، وذكر أن وفاته كانت سنة ٣٠٤ هجرية . وهذا التاريخ الأخير هو الراجح ، فإن الأفكار التي يعتنقها أبو عبيدة وبجهر بها تتناسب مع فترة الخلافة وما فيها من حرية فكرية ، ولهذا يرجح أنه عاش طرفاً من تلك الفترة وجاهر بآرائه وتحمل مثل هذا النقد الذي يوجهه إليه ابن عبد ربه . انظر تاريخ العلماء ترجمة ١٤٢٠ ، وجذوة المقتبس ترجمة ٨٢٢ ، وبغية الملتمس ترجمة ١٣٧١ .

أبا عبيدة ما المستول عن خبر  
 آيتَ إلا شذوذاً عن جماعتنا  
 كذلك القبلة الأولى مبدلة  
 زعمتَ بهرم أو بيدخت يرزقنا  
 وقلت إن جميع الخلق في فلک  
 والأرض كوريّة حفّ السماء بها  
 صيف الجنوب شتاء للشمال بها  
 فما لكانون في صنعا وقرطبة  
 تحكيه إلا سواء والذي سألا  
 ولم تُصب رأى من أرجى ولا اعتزلا  
 وقد آيت فما تبغى بها بدلا  
 لا بل عطارد أو مريخ أو زحلا  
 بهم يحيط وفيهم يتقسم الأجلا  
 فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلا  
 قد صار بينهما هذا وذا دولا  
 برداً وأيلول يدكي فيهما الشعلا<sup>(١)</sup>

فهذه قضية يحس معها الشاعر بالنفرة من أراء الفلكيين الذين ينسبون بعض ظواهر الكون لعلاقات بين الكواكب ، وبعدم الاقتناع بما يقول به العلماء من أن الأرض كروية يحيط بها فضاء السماء من كل جهاتها ، وأنها أشبه بنقطة في وسط دائرة ، وأن الفصول تتعاقب على الأرض وتختلف من مكان لآخر باختلاف موقع هذا المكان شمالاً أو جنوباً ، ومن هنا يكون الصيف في الجنوب هو وقت الشتاء في الشمال . ويدلل الشاعر على رفضه لتلك النظريات بأن شهر كانون يكون في كل من صنعا وقرطبة برداً برغم أن هذه المدينة في اليمن وتلك في الأندلس ؛ وبأن شهر أيلول يكون كذلك في كل من المدينتين قيظاً برغم هذا الاختلاف في المكان أيضاً . ولسنا هنا بصدد تفنيد خطأ الشاعر في رفضه أقوال العلماء ، وإنما الذي نريده فقط هو ملاحظة تسرب تلك الأفكار العلمية الكثيرة إلى هذا النموذج من شعر ابن عبد ربه ، وكيف تعرض إلى فكرة الفلك والكواكب وعلاقتها بالظواهر الطبيعية ، وإلى فكرة كروية الأرض وإحاطة السماء بها من

(١) وردت هذه الأبيات في تاريخ العلماء لابن الفرضي ص ١٢٦ وفي طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص ٦٤ ، ٦٥ . وهناك بعض اختلاف بين النص الوارد في تاريخ العلماء والوارد في طبقات الأمم . وقد أخذنا من كل ما يتسق أكثر مع السياق .

كل الجهات ، وإلى فكرة الفصول وتعاقبها على أجزاء الأرض ، واختلافها في كل جزء حسب موقع ذلك الجزء من الشمال أو الجنوب .

ولستا بعد في حاجة إلى أن نقول : إن هذه الظاهرة الشعرية كانت أثراً من آثار شيوع الدراسات الجغرافية والفلكية في فترة الخلافة ، تبعاً لما كان من حرية فكرية ونهضة ثقافية .

ومن الأمثلة التي تصور تسرب الأفكار العلمية إلى بعض النماذج الشعرية ، تلك الأبيات التي يوجهها الزبيدي اللغوي والشاعر الأندلسي ، إلى الوزير المصحفي ، ليؤكد له - من وجهة نظره - خطأ استعمال الفعل « فاض » بالضاد ، ويبين أن صحته « فاظ » بالظاء :

|                              |                                |
|------------------------------|--------------------------------|
| أتانى كتاب من كريم مكرم      | فنفسى عن نفس تكاد تفيظُ        |
| فسرَّ جميعَ الأولياء وروده   | وسىء رجال آخرون وغيظوا         |
| لقد حفظ العهد الذى قد أضاعه  | لدى سواه والكريم حفيظ          |
| وباحتَ عن فاظت وقبلى قالها   | رجال لديهم فى العلوم حظوظ      |
| روى ذاك عن كيسان سهل وأنشدوا | مقال أبى الغيَّاط وهو مغيظ     |
| وسُميتَ غيَّاطاً ولستَ بغائظ | عدوا ولكن للصديق تغيظ          |
| فلا حفظ الرحمن روحك حية      | ولا هى فى الأرواح حيث تفيظ (١) |

(١) كان الوزير المصحفي قد بعث بكتاب إلى الزبيدي وردت فيه كلمة فاض بالضاد ، فكتب إليه الزبيدي بأبيات ختمها بقوله :

لا تدعن حاجتى مطرحة فإن نفسى قد فاظ فانظها  
وكانه أراد بذلك أن يلفت نظره إلى الخطأ ويرشده إلى إصلاحه .

ولكن المصحفي بعث بأبيات إلى الزبيدي يطلب فيها مزيداً من التفسير ويقول :

فالشاعر هنا يحاول إثبات صحة الفعل « فاض » بالطاء وتخطئة نطقه بالضاد<sup>(١)</sup> . وهو يعتمد إلى التدليل على صحة قوله بذكر آراء الثقات من اللغويين ، وإيراد الشاهد من كلام العرب ، ويضمن نموذج الشعرى بعض الأفكار والاصطلاحات الخاصة بالحقل اللغوي لا الحقل الشعرى . وواضح أن مثل ذلك كان أثراً من آثار النهضة العلمية وازدهار الدراسات اللغوية في فترة الخلافة .

وأما من حيث لغة الشعر وعلاقتها بالحياة اللغوية التي كان يجيهاها الأندلسيون في فترة الخلافة ، فيلاحظ على بعض نماذج الشعر الفصيح ما يمكن أن يسمى :

#### ( د ) الأزواج اللغوية :

ونعني بذلك تسرب بعض الألفاظ من عامية اللاتينية المسماة « رومانثي » Romance إلى لغة الشعر الفصيح ، بحيث يأتي النظم مزدوجاً من الناحية اللغوية . ومن أمثلة ذلك ، هذا النموذج الذي تتضمنه القصة الآتية :

جلس الخليفة الناصر يوماً مع خاصته . وفيهم الوزير ابن جهور والشاعر أبو القاسم لُبّ . فأراد الخليفة أن يداعب جلساءه ؛ فطلب من الشاعر أن يهجو الوزير ابن جهور ، فامتنع خوفاً على نفسه من سلطة الوزير ، فطلب من الوزير هجاء الشاعر ، فامتنع خوفاً على عرضه من لسان الشاعر . فقال الناصر : فأنا أهجوه ، وأنشد :

لُبُّ أبو القاسم ذو حية طويلة في طولها ميلُ

= وقد أتنى فديت شاغلة للنفس أن قلت فاظ فائظها

فأوضحنها تفسر بنادرة قد بهظ الأولين باهظها

فرد عليه الزبيدي بالأبيات التي أوردناها . انظر القصة كلها في جذوة المقتبس ترجمة ٣٤ ص ٤٣-٤٤ ، ٤٥ .

( ١ ) استعمال الفعل بالضاد لغة بعض العرب . انظر : اللسان مادة « فاض »

ثم قال لابن جهور : لابد من تذييل هذا البيت ، ودع الاعتذار . فقال :  
 وعرضها ميلان إن كُـسرت والعقل مأفون ونخبول  
 لو أنه احتاج إلى غسلها لم يكفه في غسلها النيل  
 فضحك الناصر ، وقال للشاعر المهجو : إنه قد سب لك القول فقل ، فأنشد :  
 قال أمين الله في خلقه لى حية أزرى بها الطول  
 وابن جُهير قال قول الذى مأكله القـرْضيل والنـسول  
 لولا حياى من أمير الهدى نخست بالمنخس « شو » . . .  
 ثم أمسك عن الحديث ولم يتم البيت بعد كلمة « شو » فقال له الناصر : « قولو »  
 فقال الشاعر : أنت هجوته يامولاي . فضحك الناصر ، وأمر له بصلة<sup>(١)</sup> .

فكان الشاعر قال في ابن جهور :

لولا حياى من أمير الهدى نخست بالمنخس « شو قولو »  
 والإضحاك والحساسية في هذا الهجاء ، يأتيان من استخدام لفظتين « رومانيتين »  
 وهما : « شو » و « قولو » : والأولى تدل على ضمير الملك للمفرد الغائب ، مثل الهاء  
 في التعبير العربي : « كتابه » ، وقد صارت في الإسبانية « سو » Su . والثانية معناها  
 الردف . وقد صارت في الإسبانية « كُول » Culo فالمعنى على هذا :

لولا حياى من أمير الهدى نخست بالمنخس ردفه  
 وهكذا استخدمت بعض الألفاظ « الرومانى » في بعض النماذج الشعرية الفصحى  
 فكان منهما ماسميناه بالازدواج اللغوى .

وليس من شك في أن قوة الصلة بين العنصرين العربى والإسبانى في فترة الخلافة ،

(١) وردت هذه القصة والأبيات التي جاءت ضمنها في : نفع الطيب ج ٢ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ وفى : البيان

كانت من أسباب تسرب مثل هذه الألفاظ الأجنبية إلى لغة الشعر . هذا بالإضافة إلى روح الحرية وطابع التحرر اللذين كانا من أهم سمات تلك الفترة من تاريخ الأندلس . أما من حيث دور الشعر في تلك الفترة وصلته بالحياة التي كان يحياها الأندلسيون فأهم مظاهره :

### ( هـ ) تصوير العهد الذهبي :

ونعني بذلك أن الشعر في فترة الخلافة قد صور الحياة الأندلسية في عهدها الذهبي ، الذي نعمت في ظلالة سياسياً واجتماعياً وثقافياً . فقد صور الشعر عظمة الدولة وقوة الخلافة ، وتفوقها تفوقاً جعل إمبراطور الروم يرسل سفراء إلى قرطبة موالين ، وجعل بعض أمراء الإسبان الشماليين المسيحيين يتقدمون إلى العاصمة الأندلسية خاضعين . وفي بعض ذلك يقول منذرين سعيد ، مشيراً إلى وفود سفارة إمبراطور الروم على الناصر :

ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه وكلهم ما بين راج وآمل  
وفود ملوك الروم وسط فئانه مخافة بأس أو رجاء لنائل  
فعمس سالماً أقصى حياة مؤملاً فأنت رجاء الكل حافٍ وناعل<sup>(١)</sup>  
ستملكها ما بين شرق ومغرب إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

ويقول عبد الملك بن سعيد . مشيراً إلى قدوم الأمير الأسباني « أردون » إلى المستنصر طالباً العون :

هذا أميرهم أتاه آخذاً منه أواصر ذمة وحبال  
متواضعاً لجلاله متخشعاً في مأمن لماً يُرْعَق بقتال  
سينال بالتأميل للملك الرضا عزاً يعم عداه بالإذلال

(١) وردت هذه الأبيات في : نفع الطيب ج ١ ص ١٧٤ .

لا يوم أعظم للولادة مسرة . وأشده غيظاً على الأقبال<sup>(١)</sup>  
من يوم « أردون » الذى إقباله أمل المدى ونهاية الإقبال<sup>(٢)</sup>

وصور الشعر كذلك قوة جيش الأندلس وضخامته وسرعة حركته وبعد مسيرته  
وشدة تنكيهه بالأعداء . ومن ذلك قول إسماعيل بن بدر :

وذى لجب كالبحر عب عبابه فضاق به رجب الفلا والتنائفِ  
قريب الخطا نأى المدى مالىء الملا يجمع تراه واقفاً غير واقف  
تركتنا به أرض العدو كأنها مجاهل للمرتاد غير معارف<sup>(٣)</sup>

كما صور الشعر أيضاً كثيراً من مظاهر الحياة الاجتماعية ، فى جانبها اللاهى  
والجاد . وقد مضت عدة نماذج تتصل بالجانب اللاهى . أما الجانب الجاد فتمثله نماذج  
كثيرة ضمنتها كتب الأدب والتراجم التى حوت أشعاراً من تراث تلك الفترة . ومن أبرز  
تلك النماذج ما يعبر عن تجارب ذهنية مصورة فى شعر حكيمى مبنى على البصر بالحياة ،  
وسعة الإدراك للحقائق . ومن ذلك قول الناصر :

ما كلُّ شىءٍ فقدتُ إلا عوضنى الله عنه شياً  
إنى إذا ما منعت خيبرى تباعد الخير من يديا  
من كان لى نعمة عليه فإنها نعمة عليا<sup>(٤)</sup>

ومن أبرز النماذج الشعرية التى تمثل الجانب الجاد من حياة الأندلسيين فى تلك الفترة  
كذلك ، تلك التى تعبر عن تجارب عاطفية مصورة فى غزل عذرى ، معتمد على صدق

(١) الأقبال : جمع قبيل ، وهو الملك .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : الحلة السيرة لابن الأبار ص ١٢٨ .

(٣) وردت هذه الأبيات فى : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

(٤) وردت هذه الأبيات فى : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ١٧٦ .

العاطفة وعمق الشعور ونبيل الإحساس وسمو الروح ، ومن أمثلة ذلك كثير مما يتضمنه كتاب الخدائق ، من مثل قول ابن فرج <sup>(١)</sup> :

|                           |  |
|---------------------------|--|
| وطائفة الوصال عدوتُ عنها  | وما الشيطان فيها بالمطاع               |
| بدت في الليل سافرة فباتت  | دياجي الليل سافرة القناع               |
| وما من لحظة إلا وفيها     | إلى فن القلوب لها دواع                 |
| فلتكتُ النهى جمحات شوقى   | لأجرى في العفاف على طباعى              |
| وبت بها مبيت السَّقب يظما | فيمنعه الكعام من الرضاع <sup>(٢)</sup> |
| كذاك الروض ما فيه مثلى    | سوى نظر وشم من متاع                    |
| ولست من السواثم مهملات    | فأخذ الرياض من المراعى <sup>(٣)</sup>  |

وهكذا صور الشعر الأندلسي الحياة الأندلسية بأطرافها الرسمية وغير الرسمية ، وجوانبها اللاهية والحادية ، وشاع بين الأندلسيين شيوعاً جعله يتغلغل في الحياة العامة ويستخدم في كثير من الأمور اليومية . فكان في بعض الأحيان يؤدي وظيفة الرسائل والبطاقات <sup>(٤)</sup> ، وأحياناً يحل محل لغة الجدل والمناظرات <sup>(٥)</sup> . بل ، لقد بلغ من شيوع الشعر وقوة اتصاله بحياة الأندلسيين ، في تلك الفترة ، أن أنطقوا به غير الإنسان في بعض المواقف . وقد حُكي أن الناصر أحضر طبيباً لفصده ، وقعد لذلك بالبهو المشرف بأعلى

(١) هو أحمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الخدائق ، ترجم له الحميدى في الخدوة وذكر أنه كان وافر الأدب كثير الشعر . وكتابه الخدائق قد ألفه للحكم المستنصر وضمنه كثيراً من نماذج الشعر العذرى للأندلسيين . انظر الخدوة ترجمة ١٧٦ .

(٢) السقب : ولد الناقة . الكعام : الكمامة .

(٣) وردت هذه الأبيات في : جذوة المقتبس ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) اقرأ نماذج من ذلك في : نفع الطيب ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٨ وفي طبقات الأم لصاعد

ص ٧٩ .

(٥) اقرأ بعض شواهد ذلك في : نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٩ .

الزهراء ، ولما أخذ الطبيب الآلة ليقوم بالجراحة ، أطل زُرزور وصعد على إناء من الذهب كان بالجلس ، وراح يقول :

أيها الفاصد رفقًا بأمير المؤمنين  
إنما تفصد عرقًا فيه حيا العالمينا<sup>(١)</sup>

وقد قالوا : إن بعض نساء الخليفة ربت هذا الزرزور على حفظ هذا الشعر ، وفاجأت به الخليفة لتسعه بهذه المفاجأة . ويمكن أن تكون في هذه الحكاية مبالغة أو اختراع ، ولكنها مع ذلك دالة على أن الشعر في هذه الفترة كان من الشيوخ في حياة الأندلسيين بحيث يسمح بمثل هذا الذي يروون عن نطق الزرزور بالشعر .

#### ( و ) الشعراء :

شعراء هذه الفترة كثيرون ، وهم من الوفرة بحيث يصعب إحصاؤهم والحديث عن كل واحد منهم . فهم بين خليفة كالناصر والمستنصر ، ووزير كابن جهور وابن شهيد ، وعالم كالزبيدي ومنذر بن سعيد ، هذا بالإضافة إلى الأدباء الذين كانوا يصرفون أكثر نشاطهم إلى الأدب ؛ كابن عبد ربه وابن هانيء وغيرهم من الشعراء العديدين الذين عرفتهم تلك الفترة من تاريخ الأندلس ، والذين حفظت المصادر<sup>(٢)</sup> أسماء بعضهم وطرفًا من أشعارهم ، مثل إسماعيل بن بدر ، وهانيء بن محمد ، وعبيد الله بن يعلى ، وعبد الرحمن بن الأصم وأغلب بن شعيب الجياني ، وعبيد الله بن يحيى بن إدريس . وهؤلاء ممن اشتهروا في أيام الناصر . ومثل : أحمد بن فرج ، وابن الصفار ، وعبيد الله بن الناصر ، وابن يعقوب الأعمى ، وأبي بكر المغيرى ، ومحمد بن الحسين الطنبلي . وهؤلاء ممن اشتهروا في أيام المستنصر .

( ١ ) ورد هذان البيتان وقصتهما في نوح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

( ٢ ) من أهم تلك المصادر : جذوة المقتبس ، وبغية الملتبس ، والحلة السراة ، والمغرب .

وقد كان بعض شعراء فترة الخلافة ممن عاشوا بعض حياتهم في الفترة السابقة وكان لهم فيها نتاج شعري ؛ كابن عبد ربه ، ولكننا سنعتبره من شعراء فترة الخلافة ؛ لأنها الفترة التي تم فيها نضجه الفني . كذلك كان ممن أسهموا بنشاط شعري في تلك الفترة ، بعض الشعراء الذين سيلمعون في الفترة التالية مثل الرمادي ، ولكننا سوف نعتبر أمثال هذا الشاعر من شعراء الفترة التي فيها سيلمعون .

ولكثرة الشعراء في فترة الخلافة وصعوبة الحديث عنهم جميعاً في هذا الدرس العام ، سنكتفي بالحديث عن شاعرين فقط ، لأنهما أولاً أبرز شعراء فترة الخلافة ، ولأن شعرهما ثانياً يمثل كل الاتجاهات الشعرية في تلك الفترة . وهذان الشاعران هما : ابن عبد ربه ، وابن هاني .

#### ابن عبد ربه :

هو أبو عمر ، أحمد بن محمد عبد ربه<sup>(١)</sup> ؛ كان جده الرابع مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل . وقد ولد ابن عبد ربه في قرطبة على الأرجح ، وكان مولده سنة ٢٤٦هـ . ونشأ بالعاصمة الأندلسية ، متلقياً علوم الإسلام والعربية على كبار العلماء الأندلسيين في ذلك الحين<sup>(٢)</sup> ، ثم أكب بنوع خاص على كتب التاريخ والأدب ودواوين الشعر التي جادت بها قرائح المشاركة قبل عهد ابن عبد ربه وفي أيامه<sup>(٣)</sup> . وقد زار المشرق كما

(١) اقرأ ترجمته وأخباره في: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم ١١٨ ، وفي : جذوة المقتبس للحمدي رقم ١٧٢ وفي : بنية المتنس للضبي رقم ٣٢٨ ، وفي مطمح الأنفس لابن خاقان ص ٥٨ ، وفي معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢١١ - ٢٢٤ وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣٢ - ٣٣ وفي المطرب لابن دحية ص ١٥١ وما بعدها .

واقراً حياته مفصلة في كتاب : ابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور ( بيروت سنة ١٩٣٣ ) .

(٢) مثل الخشني ووضاح وبقى بن مخلد ( ابن الفرضي ) .

(٣) الفاروق لكتابه العقد والمتأمل في أشعاره ، يدرك اطلاعه على بعض كتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبة

وسيرة ابن هشام وأشعار الجاهليين والإسلاميين .

يؤكد ذلك حديثه في كتابه «العقد» حين عرض لموضوع وصف بعض البلدان والأماكن المقدسة ، كالمسجد الحرام والكعبة والحجر الأسود والمسجد النبوي (١) وما إلى ذلك ، وإن كنا لانجد ذكراً لهذه الزيارة عند أحد ممن ترجموا له من القدماء (٢) . وبرغم ما يبدو من أن تلك الرحلة كانت أساساً للحج ؛ قد كانت إلى جانب ذلك رحلة لتوسيع الدراسة وتعميق العلم وتقوية الاتصال بثقافة المشرق ، التي كانت دائماً المصدر الأول لثقافة الأندلسيين .

وقد كان أول ظهور شاعرنا كأديب في الفترة السابقة أيام الأمير محمد ، وقد عاصر ابنه المنذر وعبد الله ، الذي كانت لشاعرنا فيه قصائد مدح حفظت المصادر طرفاً منها (٣) . ثم امتد الأجل بابن عبد ربه حتى كان من ألمع شعراء فترة الخلافة أيام عبد الرحمن الناصر وبعد حياة حافلة بالأدب شعراً ونثراً وافته منيته سنة ٣٢٨ ، فدفن بقرطبة بعد أن عاش نحو اثنين وثمانين عاماً .

ويبدو أن ابن عبد ربه كان في شبابه محبباً للمتعة في شيء من التحرر ؛ فكان يشرب ويطرب ويلهو . وما يدل على ذلك قوله :

وقضيبٍ يميس فوق كتيب طيبٍ المجتبي لذيدٍ العناقِ  
قد تغنى كما استهل يُغنى ساقُ حرٍّ (٤) مغردٌ فوق ساقِ

وقوله :

دينسا في السماع دينٌ مدينيٌّ وفي شربنا الشرابَ عراقى (٥)

(١) انظر : المقدم ج ٣ ص ٢٨٠ وما بعدها ( ط . الشرفية - القاهرة ) .

(٢) ذكر الدكتور أحمد أمين هذه الزيارة . انظر كتابه . ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٥ .

(٣) انظر : المتنبس لابن حيان ( الجزء الذي نشره القس ملشور أنطونيا ) ص ٤٣ وما بعدها ، و ٩٧ وما بعدها .

(٤) ساق حر : هو الطائر المسمى بالقهاري .

(٥) يريد أن يشير إلى أنه على مذهب مالك في إباحتها ، وعلى مذهب أبي حنيفة في إباحتها شرب النبيذ . والأبيات واردة في : بيتمة الدهرج ٢ ص ٨ .

وما يصور تحرره أيضاً في الشطر الأول من حياته قوله :

بزمام الهوى أمتٌ إليه      وبحكم العقار أفضى عليه  
بأبي من زها على بوجه      كاد يدمى لما نظرتُ إليه  
ناولَ الكأس واستمال بلحظ      فسقتني عيناه قبل يديه<sup>(١)</sup>

ولما تقدمت السن بابن عبد ربه تاب وأتاب. وأصبح أميل إلى الزهد، ومن شواهد

ذلك قوله :

ألا إنما الدنيا غصارة أيبكة      إذا اخضر منها جانبٌ جف جانب  
هي الدار ما الآمال إلا فجائع      عليها ولا اللذات إلا مصائب  
وكم سسخت بالأمس عينٌ قريرة      وقرت عيون دمعها اليوم ساكب  
فلا تكتحل عيناك فيها بعبرة      على ذاهب منها فإنك ذاهب<sup>(٢)</sup>

وشعر ابن عبد ربه لا يلتزم اتجاهاً واحداً من تلك الاتجاهات التي كانت معروفة في عهده ، وإنما هو شعر يسير في أكثر تلك الاتجاهات . ولكن بلا فقدان لشخصية الشاعر أو انحاء ملامحه الخاصة ، بل مع ظهور شخصية متميزة ذات ملامح واضحة .

فابن عبد ربه شاعر قد مد الله في أجله ، فعاصر مدارس عدة وشاهد اتجاهات مختلفة ، ثم هو قد كان رجلاً محبباً للقراءة ، مكثرًا من تنبغ الأساليب ، ومن هنا كانت حصيلته الأدبية غنية ، ومعرفته بكل الاتجاهات دقيقة . فإذا صادف ذلك كله طبعاً متخيراً وملكة متحررة ، كانت النتيجة تنقلا بين كل الأغصان وتغريداً لكل الألحان . فهو رجل يسير بشعره في الاتجاه المحافظ حيناً ، وفي الاتجاه المحدث أحياناً ،

(١) وردت هذه الأبيات في : البيتية ج ٢ ص ٦ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : المطرب لابن دحية ص ١٥٥ وفي : جنوة المقتبس للحميدى ص ٩٦ .

وفي بيتية الدهر للشمالي ج ٢ ص ٧ .

ثم هو يشارك أيضاً في الأخذ بالاتجاه الشعبي ، ويسابق المتجهين إلى المذهب المحافظ الجليد ، الذي كان يغلب على شعره بعد نضجه .

لكن ترك ابن عبد ربه للتقيد بمذهب خاص لم يخف شخصيته ولم يمح ملامحه ؛ فشعره يتسم بسمتين واضحتين هما : البساطة والبنائية . فأكثر شعره تتضح فيه بساطة الفكرة ، بحيث لا تظهر. فيها محاولة لتعقيد أو تركيب أو تفلسف . كذلك أكثر صوره الشعرية تبدو بسيطة ، بحيث يسهل إدراكها وتوشك أن تلمس وتحس . وألفاظه أيضاً تأتي جلية واضحة ، بحيث لا تحتاج غالباً إلى تفسير . وكذلك أسلوبه ، يبدو بسيطاً سهلاً ، ويبلغ من السهولة أحياناً أن يذكر جزء من البيت فيوشك أن يكمله السامع .

واستمع إلى قوله في بعض انتصارات الأمير عبد الله على الثائر ابن حفصون لتحس تلك البساطة :

|                                  |   |
|----------------------------------|---|
| هو الفتح منظوماً على إثره الفتحُ | وما فيهما عهد ولا فيهما صلح                 |
| سوى أن صفحاً كان من بعد قدرة     | وأحسن مقرون إلى قدرة صفح                    |
| ومُغربة تغبرُّ في التقع كتمها    | وتخضر طوراً كلما بلها الرشح <sup>(١)</sup>  |
| تراهنَّ في نضح الدماء كأنما      | كساها عقيقاً أحمرأ ذلك النضح                |
| تطير بلا ريش إلى كل صيحة         | وتسبح في البر الذي ما به سبح                |
| عليها من الأبطال كل ممارس        | يرى أن جد الحرب من بأسه مزح                 |
| يعلدونه الأعداء كربا عليهمُ      | على أنه طلق لنا وجهه السمح                  |
| وكان ابن حفصون يعد جياده         | سراحين قبل اليوم فهي لنا سرح <sup>(٢)</sup> |
| نجا مستكنا تحت جنح من الدجي      | وليس يؤدي شكر ما أنعم الجنح                 |

(١) المغربة : الخيول الكثيرة العدو . والكت : جمع كيت ، وهو ما خالط حمرة قنوه .

(٢) السراحين : جمع سرحان ، وهو الذئب أو الأسد ، والسرح المال السائم .

دعته مُنَى كَانَتْ عَلَيْهِ مَتِيَّةٌ فَرَحًا لَهُ مِنْهَا وَقَلَّ لَهُ الرَّحُّ (١)  
 على أن تلك البساطة لم تكن دائماً مصدر جمال لشعر ابن عبد ربه ؛ فقد كانت  
 أحياناً تصل إلى درجة السطحية أو التفاهة ، ومن ذلك قوله يمدح الأمير المنذر بن محمد :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس<sup>٥</sup>  
 فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس (٢)

وقوله فيمن اسمه أبو العباس :

الله جرّدَ للندى والياسِ سيفاً فقلده أبا العباسِ  
 ملك إذا استقبلت غرة وجهه قبض الرجاء إليك روح الياس  
 وبه عليك من الحياء سكينه ومحبة تجرى مع الأنفاس  
 وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه محبة للناس (٣)

أما السمة الثانية من سمات شعر ابن عبد ربه ، وهي الغنائية ، فنحنى بها الغنائية  
 بالمعنى الخاص (٤) ، التي تتمثل في غلبة الجانب الموسيقي واتضح العنصر العاطفي ،  
 وشيوع الرقة والسلاسة . فأكثر شعر ابن عبد ربه تنضح فيه تلك السمة الغنائية وخاصة  
 ما كان متصلاً بموضوع غنائى بطبعه .

ومن ذلك قوله (٥) :

ودعّتنى بزفرة واعتناقِ ثم قالت : متى يكون التلاقي

(١) وردت هذه الأبيات ضمن قصيدة في: المقتبس لابن حيان نشر منشور أنطونيا ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) ورد هذان البيتان في : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣ .

(٣) وردت هذه الأبيات في : المقدم الفريد ج ١ ص ٨٢ .

(٤) لأن كل ما سوى شعر الملاحم والشعر التمثيلي يسمى شعراً غنائياً بالمعنى العام للغنائية .

(٥) وردت هذه الأبيات في : معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢٢١ وفي : وفيات الأعيان لابن خلكان

وتصدت فأشرق الصبح منها      بين تلك الجيوب والأطواق  
يا سقيم الجفون من غير سقم      بين عينيك مصرع العشاق  
إن يوم الفراق أقطع يوم      ليتنى مت قبل يوم الفراق  
ومنه أيضاً قوله :

الجسم في بلد والروح في بلد      يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد  
إن تبك عينك لي يا من كلفت به      من رحمة، فهما سهمان في كبدي<sup>(١)</sup>

وتلك السمة في شعر ابن عبد ربه — وهي سمة الغنائية — مصدر حرارة شعرية له ،  
ومبعث إيجائية فنية فيه . وهو يقوى ويضعف تبعاً لحظه من تلك السمة الشعرية الأصيلية .  
هاتان هما أهم سمات شعر ابن عبد ربه ، فإذا أضيف إليهما تحرره ، وعدم تقيده  
باتجاه فني خاص ، تكونت الصورة الكاملة لشاعريته .

وقد جانب الدقة قول المرحوم الأستاذ أحمد ضيف ، في شعر ابن عبد ربه :  
لأنه كان « من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم  
الكلام ، لا بمن خلقوا شعراء<sup>(٢)</sup> . نعم قد جانب هذا القول الدقة ، لأن ابن عبد ربه  
صاحب هذا الشعر المطبوع الذي رأينا بعض نماذجه ، والذي قيل<sup>(٣)</sup> إنه جُمع في نيف  
وعشرين مجلداً — لا يمكن أن يتصور رجل صناعة وحب للكلام الجميل ، كما لا يمكن  
أن يسلم بأنه ليس من الشعراء الموهوبين .

كذلك ليس من الأحكام التي يطمئن إليها الباحث ، قول المرحوم الأستاذ أحمد  
أمين ، في ابن عبد ربه : « إنه يسير في ركاب المشاركة ، ويجهد ما استطاع أن يأخذ

(١) هذان البيتان واردة في : جنة المقتبس الحميري ص ٩٥ وفي : المطرب لابن دحية ص ١٥٣ .

(٢) انظر كتابه : بلاغة العرب في الأندلس ص ٩١ .

(٣) انظر : جنة المقتبس الحميري ص ٩٤ .

معانيمهم ويزيد عليها ويختار في كل نوع من الشعر إماماً من المشاركة ؛ فطوراً لإمامه صريح الغواني ، وطوراً أبو العتاهية . وغيرهم ؛ لم يتحرر تحرراً كافياً ولم يصنع إلى قلبه فقط» (١) .  
نعم ليس هذا القول من الأحكام التي يطمئن إليها الباحث ، وذلك لأن ابن عبد ربه لم يكن يسير في ركاب المشاركة . وإنما كان يعارضهم ، ويهدف إلى التفوق عليهم . وكان مدفوعاً إلى ذلك بثقافته الأدبية الواسعة وطبعه الفني الأصيل وروحه الأندلسي الطموح المتفوق مع الاتجاه العام لعصره ؛ حيث كان الأندلسيون يحاولون دائماً تأكيد ذواتهم الأندلسية ، وإثبات عدم تخلفهم عن المشاركة . فهو لم يكن يأخذ معاني المشاركة ؛ وإنما كان يحاول أن يثبت قدرته على الإتيان بمثلها أو بأحسن منها . وهو لم يكن يتخذ لنفسه إماماً من شعراء المشرق في كل فن ؛ وإنما كان يعارض هؤلاء الأئمة ؛ ليثبت أنه مثلهم أو أقدر منهم . وهو لم يجانب التحرر ويترك الإصغاء إلى قلبه ؛ وإنما تحرر فلم يلتزم مذهباً معيناً ، وأصغى إلى قلبه فقال في كل أحاسيسه وخلجاته . وانظر إلى قوله في معارضة مسلم بن الوليد ، ثم تعليقه هو على تلك المعارضة ، ليرى أنه ما كان يسير في ركاب شعراء المشرق . وإنما كان يحاول أن يسبقهم . يقول ابن عبد ربه في معارضة قصيدة مسلم التي مطلعها . أديراً على الراح لا تشربا قبلي :

|   |                               |
|---|-------------------------------|
| أتقتلني ظلماً وتجحدي قتل                  | وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل |
| أطلاب ذحلي <sup>(٢)</sup> ليس بي غير شادن | بعينه سحر فاطلبوا عنده ذحلي   |
| أغار على قلبي فلما أتيته                  | أطالبه فيه أغار على عقلي      |
| بنفسي التي ضنت برد سلامها                 | ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي   |
| إذا جثتها صدت حياء بوجهها                 | فيعجبني هجر ألد من الوصل      |
| وإن حكمت جارت على بحكمها                  | ولكن ذاك الجور أشهى من العدل  |

(١) اقرأ هذه الأحكام في كتاب الأستاذ أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢٤ .

(٢) الذحل : الثأر .

كتمتُ الهوى جهدى فجرده الأسي  
وأحببت فيها العذل جَبًّا لذكراها  
أقول لقلبي كلما ضامه الأسي  
برأيك لا رأيي تعرضت للهوى  
وجدت الهوى نصلا من الموت مغمداً  
فإن تلك مقتولا على غير ريبة  
بماء البكا هذا يخط وذا يملئ  
فلا شيء أشهى في فؤادي من العذل  
إذا ما أتيت العز فاصبر على الذل  
وأمرك لا أمرى وفعلك لا فعلى  
فجردته ثم اتكيت على النصل  
فأنت الذي عرضت نفسك للقتل<sup>(١)</sup>

ثم يعقب ابن عبد ربه على هذه القصيدة بقوله : « فن نظر في سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه ، لم يفضل شعر مسلم عنده إلا بفضل التقدم »<sup>(٢)</sup> .

وأخيراً ليس من الآراء التي يمكن التسلم بها قول المستشرق الإسباني الأستاذ « بالثيا » Palencia : « إنه كان شاعر بلاط فقط ولم يكن ذا شاعرية ممتازة »<sup>(٣)</sup> .

فالحق أن ابن عبد ربه لم يكن شاعر بلاط فقط ؛ وذلك لأن له بجانب شعره في بني أمية الأندلسيين ، أشعاراً كثيرة في شتى الأغراض . ولاحق أيضاً أن شعره الذي بين أيدينا ، يدل على شاعرية ممتازة . وحسبنا في تقدير شاعريته رأى الشاعر المشرق الكبير أبي الطيب المتنبي الذي تضمنه تلك القصة :

لقي أبو الوليد بنُ عسال الأندلسي أبا الطيب المتنبي في مسجد عمرو بن العاص ؛  
وبعد حديث جرى بينهما قال المتنبي : ألا أنشدني للملح الأندلس - يعني ابن عبد ربه -  
فأنشد قوله :

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا ورشاً بتقطيع القلوب رفيقا

(١) وردت هذه الأبيات في : العقد الفريد ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر : Palencia, Historia de la Literatura Arabigo - Espana, p. 55.

وانظر أيضاً تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة الكتاب السابق) ص ٦٢ ، ٦٣ .

ما إن رأيت ولا سمعت بمثلته ورداً يعود من الحياء عقيماً  
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريقاً  
يا من تقطع خصره من ردفه ما بال قلبك لا يكون رقيقاً

فلما أكمل الأندلسي إنشاده ، استعاده المتنبي ، ثم صفق بيده وقال : « يا ابن  
عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبواً » (١) .

هذا وليس بين أيدينا ديوان لشعر ابن عبد ربه ، على الرغم من أن ديوانه كان غنياً  
وضخماً فيما يبدو . فقد ذكر بعض من ترجموا للشاعر أن شعره جمع للحكم المستنصر ،  
فجاء في نيف وعشرين مجلداً (٢) ، ولكن هذا الديوان ذا المجلدات العديدة قد ضاع ،  
ولم يبق من شعر ابن عبد ربه إلا مجموعة من القصائد والمقطوعات المتفرقة بين كتب الأدب  
والمختارات والتراجم ، مثل كتابه العقد ، وكتاب يتيمة الدهر للثعالبي ، وكتاب المقتبس  
لابن حيان ، وكتاب المطرب لابن دحية (٣) .

وقد عُرف ابن عبد ربه بأشعار تسمى «المحصّات» . وهي أشعار قالها بعد توبته في  
الخطر الأخير من حياته ، وعارض بها أشعاراً كان قد قالها أيام لوه ؛ فكأن تلك الأشعار  
الأخيرة قد محصت ما كان من أشعاره الأولى . ومن أمثلة تلك المحصّات قوله :

يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدرُ ولا يقضَى له من عيشه وطر  
عين بقلبك إن العين غافلة عن الحقيقة واعلم أنها سقر  
سوداء تزفر عن غيظ إذا سعرت للظالمين فلا تبقى ولا تذر  
إن الذين اشترّوا دنيا بأخرة وشقوة بنعيم ، ساء ما تجرّوا

(١) انظر : معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ش ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ٩٤ .

(٣) ومثل : نفع الطبيب للمعري ، ومطمح الأنفس لابن خاقان ، والبيان المغرب لابن عذارى ،  
ورايات المرزبان لابن سعيد ، والقطعة التاريخية التي نشرها بروفسال وجوئث في تاريخ الناصر .

يا من تلهى وشيب الرأس يندبه      ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر  
لولم يكن لك غير الموت موعظة      لكان فيه عن اللذات مزدجر  
أنت المقول له ما قلت مبتدئاً      « هلا اذكرت لبين أنت مبتكر »<sup>(١)</sup>

وهو يشير بهذا البيت الأخير إلى قطعة له سابقة ، كان قد قالها أيام اللهو ، بمناسبة عزم محبوبه على الرحيل . وسقوط المطر الذى حال بين ذلك المحبوب والسفر . وفى تلك القطعة يقول ابن عبدربه :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكرُ      هيهات يأبى عليك الله والقدر  
ما زلت أبكى حذار البين ملتهنماً      حتى رثى لى فىك الريح والمطر  
يا بَرده من حيا مزن على كبد      نيرانها بغليل الشوق تستمر  
آليت ألا أرى شمساً ولا قمراً      حتى أراك فأنت الشمس والقمر<sup>(٢)</sup>

وكما عرف ابن عبدربه بالممحصات ، عرف كذلك بأرجوزته فى الخليفة عبد الرحمن الناصر ؛ تلك الأرجوزة التى مجد فيها الخليفة ووصف حروبه وغزواته<sup>(٣)</sup> . والحق أن تلك الأرجوزة أشبه ما تكون بالمنظومات التاريخية ؛ فليس فيها من عناصر الشعر شىء ، ومن الإنصاف للشاعر والشعر أن تعد فى نتاجه التاريخى لا فى تراثه الفنى .

هذا ابن عبدربه الشاعر . على أن الشعر لم يكن كل نشاطه الأدبى ؛ فهو قد كان أيضاً نائراً من كبار كتاب فترة الخلافة . وسوف نفصل القول فى ذلك حين نتحدث عن النثر فى القسم الخاص به من هذا الفصل .

( ١ ) وردت هذه القصيدة فى : جذوة المقتبس ص ٩٥ - ٩٦ . وفى المطرب ص ١٥٤ .

( ٢ ) انظر هذه القطعة فى المصدرين السابقين .

( ٣ ) جاءت هذه الأرجوزة فى المقدم الفريد ج ٢ ص ٢٨٨ - ٣٠٣ .

## ابن هاني :

هو أبو الحسن<sup>(١)</sup> محمد بن هاني الأزدي . يتصل نسبه من جهة أبيه بالمهلب بن أبي صفرة . وكان أبوه هاني يستوطن أولاً إحدى قرى شمال إفريقيا ، ثم هاجر إلى الأندلس ، حيث ولد ابنه محمد بمدينة إشبيلية سنة ٣٢٠ أو ٣٢٦ على خلاف في ذلك<sup>(٢)</sup> . وقد كان الوالد أديباً شاعراً ، فنشأ ابنه بين إشبيلية وقرطبة وإلبيرة نشأة أدبية شعرية فحصل حظاً وافراً من أدب العرب ودراسة لغتهم وأشعارهم ، ثم قال الشعر ونبع فيه . واتصل بصاحب إشبيلية وحظي عنده ، غير أن مقامه بالأندلس لم يستمر ، بل كان ما حملة حملاً على الهجرة إلى شمال إفريقيا ، وهو ابن سبعة وعشرين عاماً . ذلك أنه كان فيما يبدو قد تعلق بالدعوة الفاطمية وعرف ذلك عنه ، ولعله صرح بشيء من ذلك في شعره . وكانت الدعوة الفاطمية مرفوضة من حكومة الأندلس لأنها كانت تمثل خطراً على هذه الحكومة ، وكان في تعلق ابن هاني بتلك الدعوة ، ثم اتصاله بصاحب إشبيلية الذي هو حاكم من قبل الخليفة الأندلسي ؛ كان في ذلك خطر لاعلى ابن هاني وحده وإنما على حاكم إشبيلية أيضاً . ومن هنا نصح هذا الحاكم ابن هاني بمغادرة إشبيلية والأندلس جميعاً ، فهاجر إلى عدوة المغرب .

وقد تعود بعض المترجمين لابن هاني أن يذكروا في سبب هجرته للأندلس أنه كان متهماً بالفلسفة كثير الانهماك في الملذات . وهذان السببان غير مقنعين ؛ فالفلسفة لم تكن في أيام ابن هاني تهمة توجب المطاردة ، بل قد ثبت أن كثيرين من أهل الأندلس

(١) يكنى أيضاً أبا القاسم . انظر في ترجمته وأخباره : جذوة المقتبس للحميدي رقم ١٥٧ ، والمطرب لابن دحية ص ١٩٢ - ١٩٥ . والتكلمة لابن الأبار رقم ٣٥٠ . والإحاطة لابن الخطيب ج ٢ ص ٢١٢ وما بعدها . ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٥ ، ٦ ونفح الطيب للمقري ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٧ . ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٨٤ - ٨٩ .

(٢) ذكروا أن وفاته كانت سنة ٣٦٢ وأنه مات وعمره ٣٦ سنة أو ٤٢ ، وبطرح سنة من سنة وفاته نحصل على سنة ميلاده ، فلما حصل خلاف في سنة ترتب عليه خلاف في سنة ميلاده .

كانوا يشتغلون بها في تلك الآونة ، التي عرفت بحرية الفكر واحترام كل الاتجاهات وتقدير كل العلوم . كذلك لم يكن الانهماك في الملذات مما يسبب إخراج أندلسي من بلده ؛ فقد كان حب الشراب والسماع والمتاع مما يشيع بين الأندلسيين في أكثر الأحيان ، ولم يكن ابن هاني بدعا بين مواطنيه في ميله إلى الملذات ؛ لهذا كله يرجح أن تكون هجرته لسبب سياسي هو اتصاله بالدعوة الفاطمية . ولعل صلته مباشرة بالحكام والقواد الفاطميين بعد هجرته إلى شمال إفريقيا ، ثم تمكنه من الفكرة الفاطمية ، ومعرفته بمصطلحات الشيعة — كما يدل على ذلك شعره — لعل ذلك كله مما يؤيد هذا التفسير لهجرة ابن هاني من الأندلس (١) .

ومهما يكن من أمر . فقد اتصل ابن هاني في شمال إفريقيا بالقائد جوهر الصقلي ومدحه ، ثم اتصل ببعض الولاة ونال جوائزهم على ما كان له فيهم من مدائح (٢) . وأخيراً وصل خبره إلى المعز لدين الله الفاطمي . فطلب أن يتوجه إليه ، فسار ابن هاني إلى لقاته ، وكانت له فيه أشعار قوبلت بالإنعام والتقدير . ولما توجه المعز إلى مصر ، شيعه ابن هاني . ثم رجع إلى المغرب لأخذ عياله ، فتجهز وتبعه ، ولما وصل إلى برقة ، انتهت حياته نهاية غامضة . فقيل : إن شخصاً من أهلها استضافه ، فأقام عنده أياماً ، ثم كانت عريضة عليه في مجلس أنس سببت قتله . وقيل : إنه خرج سكران من دار مضيفه ، فنام في الطريق وأصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته . وقيل : إنه وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً بتكة سراويله . وأغلب الظن أن ابن هاني قد قتل قتلاً سياسياً على يد بعض أنصار حكومة قرطبة المناهضة للفاطميين (٣) . وليس أدل على ذلك من

(١) انظر : تبين المعاني في شرح ديوان ابن هاني للدكتور زاهد على ص ٢٠ (مقدمة) .

(٢) كان أكثر مدحه بلعفر ويحيى ولدى على الملقب بابن الأندلسية . وكان جعفر والياً على مدينة

الزاب وكان أخوه ساعداً له وكان في تلك الآونة موالين للفاطميين .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٢ (مقدمة) .

هذا الغموض الشديد الذي يكتنف قتل ابن هاني أو موته . وعلى أية حال . قد كانت نهاية الشاعر سنة ٣٦٢ هـ بعد أن بلغ من العمر اثنتين وأربعين سنة ، أو ستاً وثلاثين . على خلاف في ذلك .

هذا وقد كان في سلوك ابن هاني كثير من الاستهتار . كما كان في عقيدته كثير من القلق ؛ فهو قد كان منهمكا في الملذات ، كما كان لا يتحرج من ذكر ما يمس الدين وما يدل على فساد العقيدة . وشعره في المعز الذي كان يرفعه إلى درجة التأليه دليل على هذا الاستهتار في السلوك والعقيدة جميعاً . وسوف ترد أمثلة كثيرة تؤيد هذا الجانب في شخصية ابن هاني .

وشعر ابن هاني يسير في الاتجاه المحافظ الجديد الذي كان على رأسه بالمشرق في تلك الفترة أبو الطيب المتنبي ، بل إن ابن هاني قد تأثر كثيراً بأبي الطيب حتى كان الأندلسيون يقارنون به ، غير أن شاعرنا كان مع ذلك ذا شخصية شعرية متميزة . وسماه فنية خاصة .

وكان ابن هاني قد عرف شعر البحري وأبي تمام<sup>(١)</sup> . كما درس شعر أبي الطيب وتعلق بمذهبه<sup>(٢)</sup> ، ثم كانت قريحته الشعرية وملكته الفنية ، فكان اختياره للاتجاه المحافظ الجديد أولاً ، ثم تميزه بمسات خاصة ثانياً .

ومن هنا لم يكن شعر ابن هاني شعراً يحول فيه اللون الخاص ، ويعتمد فقط على الشعرية التي تمددها القراءة ، ويعينها الاطلاع على نتاج كالذي قرئ وشعر كالذي

(١) من أدلة ذلك قوله :

من أين أنكر فضلكم ولو انني كأبي عبادة أو أبي تمام

(الديوان ص ١٨٤) .

(٢) اقرأ قصيدته في رجل كان قد أعاره كتاباً فيه شعر المتنبي ثم أساء استرداده منه (ق ص ٧٧ من

ديوان ابن هاني) .

حُصِّل ، وإنما كان لشعر ابن هاني هذا اللون المميز ، والطابع الخاص ، الذي لا يعدو تحصيل صاحبه أن يكون زاداً كالذي ترشفه النحلة من الأزهار المختلفة ، لتخرجه بعد ذلك شيئاً آخر هو العسل الذي فيه طبيعة النحلة وعملها ، إلى جانب طبيعة الرحيق وعنصره .

أما أهم تلك السمات الفنية الخاصة التي تميز شعر ابن هاني برغم اتجاهه المحافظ الجديد ، فسمتان هما : الحدة الشعرية ، والمذهبية السياسية . والسمة الأولى وهي سمة الحدة تتضح في شعر ابن هاني وتشمل مضمونه وشكله على السواء . فهو فنان حاد في فنه الأدبي ، صارخ في لونه الشعري . وحدته تبدو في معانيه وصوره ، وفي ألفاظه وتعابيره ، بل في أوزانه وقوافيه .

أما الأفكار ، فيلاحظ أن ابن هاني يتعمقها ، ويبالغ أحياناً فيها ، ولا يهسه بعد ذلك أيقبلها العقل أم لا يقبلها ؛ بل أنكرها الدين أم لا ينكرها . فهو يقول مثلاً في سيفه :

لي صارم وهو شيعي<sup>١</sup> كحامله يكاد يسبق كرتاني إلى البطلِ  
إذا المعز معز الدين سلطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل<sup>(١)</sup>

وهذه حدة مقبولة بل جميلة ؛ لأن الشاعر خفف منها في البيت الأول بقوله «يكاد» . ثم بتلك الصورة الفنية التي تخيل السيف يسابق صاحبه إلى عدوه . كما خفف منها في البيت الثاني أن الآجال غير معروفة ، فكون السيف لا يرتقب مدة الأجل ليقضي على العدو ، شيء مقبول جميل .

لكن لابن هاني أحياناً حدة لا يقبلها العقل ، وقد يرفضها الذوق ويأبأها الدين ؛ فهو يقول في كرم بعض ممدوحيه :

(١) ديوان ابن هاني ص ١٦٩ .

من كان أول نقطه في مهده  
ويقول في أهمية آخر:

هو علة الدنيا ومن خلقت له  
ويقول في تقديسه:

إمام رأيتُ الدين مرتبطاً به  
أرى مدحه كالمدح لله إنه  
فطاعته فوز وعصيانه خسر  
قنوت وتسبيح يُحط به الوزر (٣)

ويقول في سلطانه:

ما شئت لا ما شاءت الأفذارُ  
فاحكم فأنت الواحد القهار

وليس من شك في أن الحدة تكون مقبولة حينما تكون عمقاً في الفكرة وصدقاً في التجربة  
وحرارة في الإحساس . أما حين تكون مبالغة يرفضها الذوق أو العقل أو الدين ، فإنها  
تأتي سخيقة ساقطة ، ككثير مما قاله ابن هاني في ممدوحيه وتخاصة المعز الفاطمي .

وابن هاني حاد كذلك في صوره الشعرية ؛ فهو يوسع رقعتها ويبرز خطوطها ،  
ويظهر ألوانها ، ولا يعنيه بعد ذلك أجاءت الألوان صارخة أم هادئة ، ولا يهمه أتت  
الخطوط متناسقة أم متنافرة . فهو يقول مثلاً في تصوير أكل :

يا ليت شعري إذا أوما إلى فه  
أحلقه لهوات أو ميادينُ  
كأنها وخبث الزاد يضررها  
جهنم قذفت فيها الشياطين  
تبارك الله ما أمضى أسنته  
كأنما كل فك منه طاحون  
كأن بيت سلاح فيه مخزن  
ما أعدته للروسل القراعين

(١) ديوان ابن هاني ص ١٨ .

(٢) ديوان ابن هاني ص ٥ .

(٣) ديوان ابن هاني ص ٨١ .

(٤) ديوان ابن هاني ص ٨٨ .

كأنما الحمل المشوى فى يده ذو النون فى الماء لما عضه النون  
 كأن فى فكه أيتام أرملة أو باقيات عليهن التباين<sup>(١)</sup>

وهذا من جميل التصوير ؛ لأن المقام يحتمل المبالغة ؛ فهو مقام سخرية تتحمل  
 هذا التعبير « الكاريكاتيرى » . غير أن ابن هانئ فى مقام آخر يصل فى حدته التصويرية  
 إلى درجة تفسد الصورة ؛ ومن ذلك قوله فى وصف ليلة . بصورها عادة أرسلت من ظلامها  
 شعراً طويلاً مسترسلاً ، ولبست من أنجمها شنفاً فى أذنها :

أليتنا إذ أرسلت واردةً وحفاً وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفاً<sup>(٢)</sup>  
 ومن ذلك أيضاً قوله فى معذر مورد الخد :

وكان صفحة خده وعذاره تفاعه رميت لتقتل عقرباً<sup>(٣)</sup>  
 ومنه كذلك قوله فى البرق :

بل ما لهذا البرق صيلاً مطرقاً ولأى خيل الشائمين أتيجاً<sup>(٤)</sup>

وابن هانئ كذلك حاد فى ألفاظه وعباراته ؛ فهو يؤثرها فحمة ذات جرس عال  
 ورنين واضح ، وهو فى كثير من الأحيان موفق فى ذلك . ومن هذا قوله :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمعُ وقد راعنى يوم من الحشر أروع  
 غداة كأن الأفق سد بمشله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

(١) التباين : جمع تبان - بضم التاء وتشديد الباء - وهو سروال صغير . وقد وردت هذه الأبيات  
 فى : ديوان ابن هانئ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) الوارد : الشعر الطويل . والوحف : الشعر الكثير الأسود . والشنف : ما يعلق فى أعلى  
 الأذن . والبيت فى ديوان ابن هانئ ص ١٦ .

(٣) ديوان ابن هانئ ص ١٦ .

(٤) الصل : الحية أو الدقيقة الصفراء . والبيت فى ديوان ابن هانئ ص ٣٠ .

فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع  
وكيف أخوض الجيش والجيش بلجة  
وأين ؟ وما لي بين ذا الجمع مسلك  
ألا إن هذا حشد من لم يذق له  
على أنه في أحيان أخرى تدفعه الحدة المؤثرة للفظ الفخم والرزين الواضح ، إلى الصخب  
والتعقمة والإتيان بالغريب . ومن هذا قوله :

أصاحت فقالت : وقع أجرد شيطم  
وما ذُعت إلا لجرس حليها  
ومنه أيضاً قوله :

أقول دى وهى الحسان الرعايبُ  
تتوى أبعدت طائية ومزارها  
سلوا طيبي الأجال أين خيامها  
همُ جنبوا ذا القلب طوع قيادهم  
وهم جاوزوا طلع الشواجن والغضا  
ومن دون أستار القباب محاريب (٣)  
ألا كل طأى إلى القلب محبوب  
وما أجأ إلا حصان ويعبوب (٤)  
وقد يشهد الطرف الوغى وهو مجنوب (٥)  
تخب بهم جردُ اللقاء السراحيب (٦)

- (١) غرار الكرى : القليل من النوم . والأبيات في ديوان ابن هاني ص ٩٨ - ٩٩ .  
(٢) أصاحت : أصنت . والشيطم من الخيل : الطويل الجسم . وشامت : تطلعت . والمختم .  
السيف القاطع . والبرى : جمع برة ، وهى كل حلقة من سوار وقرط وخلخال . . والمختم : موضع الخلل من  
الرجل (والبيتان من مطلع قصيدة ص ١٧٢ ديوان) .  
(٣) الرعايب ؛ جمع رعبوبة ورعبوب ورعييب وهى : الحارية البيضاء الحسنة الحلوة الناعمة . والمحاريب :  
جمع محراب . وهو الكثير الحرب ونغوض المراكب .  
(٤) طيبي : قبيلة من العرب . وأجأ : أحد جبالهم . ويعبوب من الخيل : السريع الطويل .  
(٥) جنبه : قاده إلى جنبه ، فهو جنب وجنب وجنب وجنب . والطرف : الكريم من الخيل .  
(٦) الشواجن : جمع شاجنة وهى ضرب من الأودية كثير الشجر . والطلع : شجر عظيم والموز .  
والغضا : شجر عظيم وأحدثه غضاة . والسراحيب . جمع سرحوب وهى الفرس الطويلة الحسنة .

وقد عيب ذلك على ابن هاني . وهو عيب من غير شك . إلا أن من الإنصاف أن يقال : إن هذا العيب ليس عاماً في شعره ولا في أكثره حتى يحكم به على فنه جملة . ومن هنا كان أبو العلاء غير دقيق الحكم حين اعتبر شعر ابن هاني شيئاً لا طائل تحته وقال : « ما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً »<sup>(١)</sup> . فالحق أولاً أن أكثر شعر ابن هاني لا تصل فيه حدة التعبير إلى الصخب والخلبة والقعقة ، وإنما أكثره فيه ميل حقيقة إلى اللفظة الفخمة ، والعبارة الجزلة ، والأسلوب ذى الموسيقى الواضحة . وهذا لون من التعبير ومذهب في الأداء ، فكما يحب البعض التعبير المهروس والأداء الهادئ ، يؤثر البعض الآخر الموسيقى الرنانة والأنغام العالية . والحق ثانياً أن حب أبي العلاء الشديد للمتنبي وشعره ، هو الذى جعله يهجن من شعر ابن هاني الشاعر الأندلسي ، الذى كان مواطنوه في المغرب يقارنونه بالمتنبي في المشرق<sup>(٢)</sup> . وإلا فكيف يصدق حكم أبي العلاء على مثل قول ابن هاني :

|                               |                                       |
|-------------------------------|---------------------------------------|
| فتكات طرفك . أم سيوف أبيك     | وكتوس خمر أم مراشف فيك                |
| أجلادُ مرهفة وفتكُ محاجر      | ما أنت راحمة ولا أهلك                 |
| يا بنت ذى البرد الطويل نجاده  | أكذا يكون الحكم في ناديك              |
| قد كان يدعوني خيالك طارقاً    | حتى دعاني بالقنا داعيك                |
| عينك أم مغناك موعدنا وفي      | وادي الكرى ألقاك أم واديك             |
| منعوك من سنة الكرى وسرّوا فلو | عثروا بطيف طارق ظنوك                  |
| ودعوك نشوى ما سقوك مدامة      | لمّا تمايل عطفك اتهموك <sup>(٣)</sup> |

وابن هاني كما هو حاد في معانيه وصوره وألفاظه . حاد كذلك في موسيقى شعره ،

(١) انظر : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥ .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) أنظر هذه الأبيات في : ديوان ابن هاني ص ١٣٤ .

فهو يختار غالباً تلك الأوزان الطوال ذات التفاعيل الكثيرة والنغم الواضح والرزين العالى .  
ومن هنا كانت أكثر قصائده من الطويل والبسيط والكامل ؛ وقليل من شعره هو الذى  
جاء على غير هذه الأوزان . وقلما نجد له شعراً من الأوزان القصيرة ذات الموسيقى البسيطة  
المهذبة . وكما يفعل ابن هاني في الأوزان يفعل في القوافي ، فكثير من شعره يتحم بالقوافي  
الفخمة التي تملأ القم وتزحم السمع ، بل إن قوافيه تأتي أحياناً على حروف لم تؤلف  
في القوافي كثيراً ، كالثاء والحاء والطاء . ومن أمثلة حدة ابن هاني في موسيقى شعره وزناً  
وقافية قوله :

لمن صولجان فوق خدك عابثُ      ومن عاقد في لحظ طرفك نافث  
ومن مذنب في الهجر غيرك مجرم      ومن ناقض للعهد غيرك ناكث<sup>(١)</sup>  
وقوله كذلك :

ألؤلؤٌ دمع هذا الغيث أم تنقطُ      ما كان أحسنه لو كان يلتقط  
بين السحاب وبين الريح ملحمة      معامع وظلي في الجو تخترط<sup>(٢)</sup>  
وإيثار ابن هاني لتلك القوافي الفخمة أو غير المألوفة قد يجره أحياناً إلى التورط  
في الغريب المعتمى كقوله :

سرى وجناح الليل أقم أفتح<sup>(٣)</sup>      ضجيع مهاد بالعبير مضمخ  
فحيثُ مزور الخيال كأنه      محجب أعلى قبة الملك أبلغ<sup>(٤)</sup>  
وأخيراً تبدو حدة ابن هاني في كم أعماله الشعرية ؛ فهي في الغالب قصائد . وأغلب

(١) ديوان ابن هاني ص ٢٥ .

(٢) تخترط : تستل .

(والبيتان من مطلع قصيدة في صفحة ٩٦ من ديوان ابن هاني .)

(٣) أفتح ، من الفتح - محركة - وهو استرخاء المفاصل أو عرض القدم والكف وطولها .

(٤) الأبلغ : المتكبر .

(والبيتان في شرح ديوان ابن هاني ص ١٨٣ .)

تلك القصائد من النوع الطويل المفرط الطول ، حتى إن بعضها يتجاوز المائتي بيت . هذه هي السمة الأولى من سمته البارزتين . أما الثانية – وهي المذهبية السياسية – فتبدون في كون ابن هاني شاعراً مذهبياً ، لا يؤمن بالفن فقط ، وإنما يستخدمه في تدعيم مذهب يميل إليه ويدعوله . فابن هاني قد اتصل بالحركة الشيعية وهو في الأندلس . وكانت السبب في خروجه من بلده وهجرته إلى شمال إفريقيا . ثم إنه قد اتصل بزعماء الفاطميين اتصالاً مباشراً بعد هجرته : وعمل للدعوة الفاطمية . فكان لسانها الناطق وداعيتها ذا الصوت الجهوري . ومن هنا كثرت في شعره مصطلحات الشيعة وآراءهم ، وبدت في نتاجه خطوط مذهبهم وروح دعوتهم ، واشتمل أسلوبه في كثير من المواطن على الحجاج والجدل والتعليل والتدليل ومحاولة الإقناع المنطقي لا التأثير الوجداني . وربما لا تخلو قصيدة من قصائده في المعز ، من عشرات الأمثلة على ذلك . فهو يقول مشيراً إلى فكرة الإمامة :

إمام عدل وفَمَى في كل ناحية      كما قضاوا في الإمام العدل واشترطوا<sup>(١)</sup>  
ويقول مشيراً إلى فكرة العصمة :

مؤيد باختيار الله يصحبه      وليس فيما أراه الله من خلل<sup>(٢)</sup>  
ويقول في فكرة ميراث آل البيت للحكم :

هو الوارث الأرض عن والدين      أب مصطفي وأب مرتضى<sup>(٣)</sup>  
ويقول في فكرة تقديس الإمام :

من شعلة القبس التي عُرِضت على      موسى وقد جازت به الظلماء  
من معدن التقديس وهو سلالة      فخرت به الأجداد والآباء<sup>(٤)</sup>

(١) ديوان ابن هاني ص ٩٧ .

(٢) ديوان ابن هاني ص ١٩٢ .

(٣) ديوان ابن هاني ص ٢١٧ .

(٤) ديوان ابن هاني ص ٦٠٥ .

ومثل هذه الأفكار الشيعة كثير واضح في شعر ابن هاني<sup>(١)</sup> ، ويكفي أن نطالع قصيدة واحدة من قصائده في المعز الفاطمي لنستخرج عديداً من الأفكار والآراء الشيعة ، ولندرك ببساطة تلك المذهبية السياسية في شعر ابن هاني ، بالإضافة إلى معالم منه الأخرى . يقول شاعرنا في مدح المعز ، ويذكر دخول الفاطميين مصر :

تقول بنو العباس : هل فُتحت مصرُ  
وقد جاوز الإسكندرية جوهر  
وقد أوفدت مصرٌ إليه وفودها  
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت  
فلا تكثروا ذكر الزمان الذي خلا  
أفي الجيش كنتم تمرون رويدكم  
وقد أشرفت خيل الإله طوالعاً  
وذا ابن نبي الله يطلب وتسه  
فكوزوا حصيداً خامدين أو ارعوا  
فإن تبعوه فهو مولاكم الذي  
وإلا فبعداً للبعيد فينيه  
أفي ابن أبي السبطين أم في طليقكم<sup>(٢)</sup>  
نبي نَسَلَه ما أورث الله نَسَلَه<sup>(٣)</sup>  
وأنتى بهذا وهي أعدت برقها  
قدونكموهسا أهل بيت محمد

فقل لبني العباس قد قضى الأمر  
تطالعاه البشري ويقدمه النصر  
وزيد إلى المعقود من جسرهما جسر  
وأيديكُمُ منها ومن غيرها صفر<sup>(٤)</sup>  
فذلك عصر قد تقصّى وذا عصر  
فهذا القنا العرّاض والجحفل الحجر<sup>(٥)</sup>  
على الدين والدنيا كما طلع الفجر  
وكان حَسْرَ أن لا يضيع له وتر  
إلى ملك في كفه الموت والنشر  
له يرسل الله دونكم الفخر  
وبينكم ما لا يُقرّبه الدهر  
تنزلت الآيات والسور الفخر  
وما ولدت ، هل يستوى العبد والحُر  
أباكم فإياكم ودعوى هي الكفر  
صفت بمعز الدين جمّاتها<sup>(٦)</sup> الكدرُ

(١) انظر أمثلة كثيرة قد استخرجها الدكتور زاهد عل في مقدمته لشرح ديوان ابن هاني ، المسمى بتبيين المعاني .

(٢) الصفر بالضم ويثك : الخلال .

(٣) القنا العراض : اللدن المهزلة ، الذي إذا هز اضطرب . والجحفل الحجر : الجيش العظيم .

(٤) المراد بالطلق : العباس عم الرسول ، لأنه أسريوم بدر ، فأطلقه النبي صلى الله عليه وسلم بالقديّة .

(٥) نَسَلَه : هي أم العباس عم الرسول ، ويقال لها : نَسَلَه . وهي بنت جناب بن كلب .

(٦) الجمات : جمع جمّة ، وهي البئر الكثيرة الماء .

فقد صارت الدنيا إليكم مصيرها  
 إمام رأيت الدين مرتبطاً به  
 أرى مدحه كالمدح لله إنه  
 فيا مالكا هَدَى الملائك هديه  
 ويا رازقاً من كفه نشأ الحيا  
 ألا إنما الأيام أيامك التي  
 لك المجد منها يالك الخير والعللا  
 لقد جدت حتى ليس للمال طالب  
 فليس لمن لا يرتقى النجم همة  
 وددت لجيل قد تقادم عصرهم  
 ولو شهدوا الأيام والعيش بعدهم  
 فلو سمع الثويب<sup>(٣)</sup> من كان رمة  
 لناديت من قد فوز<sup>(٤)</sup> احي بدولة

وصار له الحمد المضاعف والأجر  
 فطاعته فوز وعصيانه خسر  
 قنوت وتسيح يحط به الوزر  
 ولكن نجر الأنبياء له نَجْر<sup>(١)</sup>  
 وإلا فمن أسرارها نبع البحر  
 لك الشطر من نعماتها ولنا الشطر  
 وتبقى لنا منها الحلوية والدر  
 وأعطيت حتى ما لمنفسيه<sup>(٢)</sup> قدر  
 وليس لمن لا يستفيد الغنى عذر  
 لو استأخروا في حلبة العمر أوكروا  
 حدائق والآمال موقنة خضر  
 رفاتاً ولبي الصوت من ضمه القير  
 تقام لها الموتى ويرجع العمر<sup>(٥)</sup>

ولما كان ابن هاني أقرب إلى أبي الطيب منه إلى أي شاعر آخر من شعراء الانبياء  
 المحافظ بالحديد ، لاتفاقهما في حدة الطبع أولاً ، ودراسة ابن هاني لشعر المتنبي  
 وافتتانه بمذهبه ثانياً ؛ كان من مظاهر ذلك أخذ ابن هاني لبعض أفكار المتنبي ، كقوله :

ألم يبد سراً الحب أن من الضنا رقيباً وإن لم يهتك السر هاتك<sup>(٦)</sup>

(١) النجر : الأصل كالنजार .

(٢) شيء منفس : كنفيس ، ثمين يتنافس فيه .

(٣) الثويب : الدعاء إلى الصلاة .

(٤) فوز : مات .

(٥) هذه الأبيات مختارة من تصيدة لابن هاني . وهي كاملة في ديوانه ص ٧٨ وما بعدها .

(٦) ديوان ابن هاني ص ٢٨١ .

فإن هذا المعنى من قول المتنبي :

وإذا خامر الهوى قلب صب فعليه لكل عين دليل

ومن أخذ ابن هاني لبعض معاني المتنبي قوله كذلك :

إنَّ ذل العزيرز أقطع مرأى بين عينيه من لقاء الختوف<sup>(١)</sup>

فهذا المعنى من قول المتنبي :

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحالات ولا يلاقى الهوانا

وهذا مما يعاب على ابن هاني . وما يعاب عليه كذلك : المبالغة المفرطة التي تفضي

أحياناً إلى الاصطدام بالعقل أو الذوق أو الدين ، وقد مضت نماذج لذلك . ثم تكرر

المعنى الواحد في عدة مواضع أحياناً . ومن ذلك قوله :

شهدتُ بمفخرك السموات العلا وتنزل القرآن فيك مديحا<sup>(٢)</sup>

ثم قوله في قصيدة أخرى .

من يشهد القرآن فيه بفضلته وتصديق التوراة والإنجيل<sup>(٣)</sup>

ثم قوله في قصيدة ثالثة :

إن الخبير بكم أجهد بخلقكم غيباً فجرد فيكم التنزيلا<sup>(٤)</sup>

ومن ذلك أيضاً قوله :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما ، كانت الأشياء<sup>(٥)</sup>

(١) ديوان ابن هاني ص ١٠٦ .

(٢) ديوان ابن هاني ص ٣٢ .

(٣) ديوان ابن هاني ص ١٤٢ .

(٤) ديوان ابن هاني ص ١٤٧ .

(٥) ديوان ابن هاني ص ٥ .

ثم قوله في قصيدة ثانية :

من أجل هذا قدرَ المقدور في أمّ الكتاب وكوّن التكوين<sup>(١)</sup>

ثم قوله في قصيدة ثالثة :

هو الوارث الدنيا ومن خلقت له من الناس حتى يلتقى القطر والقطر<sup>(٢)</sup>

وأخيراً يؤخذ على ابن هاني تورطه أحياناً في التعبير الصاحب واللفظ الغريب . وقد سلفت أمثلة لهذا .

على أن ذلك كله لا يغض من قيمة الشاعر ، ولا يزعجه عن الصف الأول بين شعراء الأندلس ؛ فهو من غير شك شاعر ممتاز ، يجمع إلى الأصالة الفنية التمكن من أدوات الشعر ، يحشد له غالباً المعنى العميق واللفظ القوي والعبارة المحكمة والصورة الرائعة والموسيقى الرنانة . كل هذا إلى طول نفس ووفرة نتاج .

وكما كان ابن هاني أقدم شاعر أندلسي عرفناه متفرغاً للشعر ، كان كذلك أقدم شاعر أندلسي حفظت لنا الأيام ديوان شعره . فكل سابقه ومعاصره لم تبق الأيام من تراثهم إلا مختارات هنا وهناك ، قد تكثرت وقد تقل . أما ابن هاني فقد بقي له ديوان . ولعل السر في ذلك اتصاله بالحركة الشيعية ؛ فالشيعية كانوا أصحاب مذهب ، لهم دعاة ورواة ، يشيعون أمجادهم وينقلون جميل الثناء عليهم ، وقد كان شعر ابن هاني مادة صالحة لعمل هؤلاء الدعاة الرواة . ومن هنا كان حفظ ديوانه ، الذي بقي ضمن تراث الشيعية . وما يرجح ذلك أننا لا نجد بين دفتي الديوان شعراً لابن هاني يتصل بإشبيلية وحياته فيها . فأغلب الظن أن الشيعية الذين حفظوا ديوانه ، قد عنوا فقط بما يتصل بهم ، أو على الأكثر بالشعر الذي قاله بعد اتصاله بهم وعمله معهم . ومن هنا يرجح أن ديوان

(١) ديوان ابن هاني ص ١٩٧ -

(٢) القطر : الناحية والجانب ، ولعل المراد التقاء جانبي الدنيا بطيها يوم القيامة : ديوان ابن هاني ص ٨١ .

ابن هانيء الذى بين أيدينا لا يمثل كل شعره ، وإنما هو فى أغلب الظن مختارات قد اختارها هو فى حياته أو اختارها له غيره من الشيعة بعد مماته .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الديوان يحوى مجموعة طيبة غنية من شعر ابن هانيء ، تصور فنه وحياته ، وتأخذ فى التراث الأندلسى مكاناً مرموقاً<sup>(١)</sup> .

### ثانياً - النثر :

كان أهم مظاهر النهضة الأدبية فى فترة الخلافة ، ظهور نوع من النثر لم تعرفه الأندلس من قبل ، وهو النثر التأليفى . وهكذا أصبح للأدب الأندلسى فى فترة الخلافة نوعان من النثر ، أولهما ذلك النوع الذى عرفته من قبل وهو النثر الخالص ، وثانيهما ذلك النوع الذى ظهر فى تلك الفترة ، وهو النثر التأليفى وسنخصص كلا منهما بمحدث .

### (١) النثر الخالص :

سار هذا النوع من النثر متأثراً بالمذهب الجاحظى الذى بدأ التأثير به فى أواخر الفترة السابقة . وزاد التأثير به فى هذه الفترة . كما أخذ هذا النوع من النثر يتجه بشكل واضح إلى المهجية والعناية بالبده والموضوع والختام . كذلك انعكست عليه فخامة الأندلس وعظمتها فى فترة الخلافة . فكثرت الألقاب ، والجمل الدعائية المفخمة ، والعبارات الاعترافية المعظمة . وظهر الميل إلى التطويل والتكرار والبسط .

ويلاحظ أن النثر الصادر عن ذوى الثقافة الدينية كان أكثر استشهاداً بالقرآن الكريم ، وأعظم ميلاً إلى السجع ، وأشد تعلقاً بالإطناب .

(١) طبع ديوان ابن هانيء عدة طبعات بعضها فى مصر وبعضها فى بيروت . وغير طباعته هى التى حققها

وقد لقيت الكتابة الرسمية عناية كبيرة في تلك الفترة ؛ حيث قام بها طائفة من الأدباء المقندين ، ووصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة أو الحجابة .

ومن بين الأسماء التي لمعت في هذا الميدان . ابن المنذر ، وابن جهور ، وابن بسيل ، وابن فطيس ، وابن أبي عامر ، والمصحفي<sup>(١)</sup> .

وقد عمل بعض النساء خلال فترة الخلافة ، في ميدان الكتابة الرسمية . ومن حفظت أسماؤهن : مرزنة<sup>(٢)</sup> كاتبة الخليفة الناصر ، ولبنى<sup>(٣)</sup> كاتبة الخليفة المستنصر .

وتلك بعض نماذج من فترة الخلافة ، يتضح معها ما أسلفنا من ملاحظات . فن المنشورات ، ذلك المنشور الذي وجهه عبد الرحمن الثالث إلى حكام الأقاليم ليخبرهم باتخاذ لقب الخليفة ، وليلزمهم بمخاطبته به ، ولينبهوا الخطباء إلى مراعاته . وهذا نص المنشور :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد . فلإنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، وليس من كرامة الله ما ألبسه ؛ للذي فضلنا به وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطانتنا إليه ، ويسر على أيدينا ذكره ، وسهل بدولتنا مرامه ؛ وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولي الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه .

« وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين . وخروج الكتب عندنا وورودها علينا بذلك ؛ إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا متحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه . وعلمنا أن التماذى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعفناه ، واسم ثابت أسقطناه .

(١) يمكن استخراج أسماء كثيرة من الكتاب من خلال ما كتبه ابن عذارى في البيان المغرب عن تاريخ الناصر والمستنصر ج ٢ ص ٢٣٤ وما بعدها .

(٢) ذكرها ابن بشكوال في الصلة ترجمة ١٥٣٠ ، والغبى في البغية ترجمة ١٦٩٠ .

(٣) ذكرها ابن بشكوال في الصلة ترجمة ١٥٢٩ ، والصبى في البغية ترجمة ١٥٨٩ .

فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ، إن شاء الله . والله المستعان «<sup>(١)</sup> .

ومن الخطب ، تلك الخطبة التي ألقاها الفقيه منذر بن سعيد البلوطي في حفل الاستقبال الذي أقامه الناصر لسفير إمبراطور النمطونية ، وكان أبو علي القالي قد وقف ليخطب في هذه المناسبة ، فافتتح بحمد الله والثناء على نبيه ثم أحصر ، فوقف منذر وبدأ من حيث انتهى القالي فقال : « أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه . والصلاة على محمد صفيه وخاتم أنبيائه : فإن لكل حادث مقاماً ، ولكل مقام مقالاً ، وليس بعد الحق إلا الضلال . وإني قد قمت في مقام كريم . بين يدي ملك عظيم ، فأصغوا إلى معشر الملأ بأسماعكم ، وأتقنوا عني بأفئدتكم . إن من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت . وإن الجليل - تعالى في سمائه ، وتقدس بصفاته وأسمائه - أمر كلمه موسى - صلى الله جل وعز على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه - أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم . وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسوة حسنة . وإني أذكركم بأيام الله عندهم . وتلافيه لكم ، بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعنكم ، وأمنت سربكم . ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم . ومستضعفين فقواكم ، ومستذلين فنصركم . ولآه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سراقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ؛ حتى صرتم في مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير . فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء . أنشدكم الله معاصر الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقتها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعزرها ، وثغور المسلمين مهتزمة فحماها

(١) انظر : البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وقد جاء في آخر المنشور ، « وكتب يوم الخميس لليتين خلنا من ذي الحجة سنة ٣١٦ » .

ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ؛ حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشق صدوركم وصرتم يداً على عدوكم ، بعد أن كان بأسكم بينكم . فأنشدكم الله ، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقابها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد ، حتى يأسره بالقرية والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعوة وهي محبوبة . وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة . بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة نافذة ثابتة ، وريح هابة غالبية . ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملاً للنصب ، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب ؛ حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حلتها ، ولم يبق لها غارب <sup>(١)</sup> إلا جبه ، ولا نجم لأهلها قرن إلا جده <sup>(٢)</sup> . فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، ويلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً . حتى تواترت لديكم الفتوحات . وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم . وآمال الأqvين والأدين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ؛ لأخذ جبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . ولن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية . دليلها قائم ، وجفنها غير نائم . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم <sup>(٣)</sup> . وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ، ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب . فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، وأسألوه المزيد من نعمائه ؛ فقد أصبحتم بين خلافة أمير

(١) الغارب : الكاهل . والجلب : القطع .

(٢) القرن : الذؤابة ، والخصلة من الشعر . والعبارة في الأصل : « ولا نجح لأهلها قرن إلا جده » .

وقد ضبطناها بما يتفق مع السياق ويتأق معه معنى .

(٣) زاد في الأصل : الآية .

المؤمنين - أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق والرشاد - أحسن الناس حالاً ، وأنعمهم بالآلا . وأعزهم قراراً ، وأمنهم داراً ، وأكثفهم جمعاً وأجملهم صنماً ؛ لا تهاجمون ولا تذاون ، وأنتم بحمد الله على أعدائه ظاهرون . قاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتمكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها ، والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقق الدماء ، وصلاح الخاصة والديه ، وأن يقوم الطاعة تمام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ؛ وبها سد الله الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكتاف ، ورفع الخلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار . واعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فإنه تبارك وتعالى يقول : " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " (١) . وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين ؛ الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملاكم ، الآخذين في مخاذلة دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين . أقول قول هذا ، وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم ، فهو خير الغافرين « (٢) .

ومن أمثلة المراسلات ، ما دار بين الفقيه أبي إبراهيم والأمير الحكيم بن عبد الرحمن الناصر . وكان الفقيه قد دعى إلى حفل رسمي بالزهراء فتخلف فغضب الخليفة وأمر ابنه الحكيم بالكتابة إليه في ذلك ، فكتب .

« بسم الله الرحمن الرحيم . حفظك الله وتولاك ، وسددك ورعاك . لما امتحن أمير المؤمنين - مولاي وسيدى أبقاه الله - الأولياء الذين يستعذبهم ، وجعلك متقلماً في

(١) زاد في الأصل : الآية .

(٢) وردت هذه الخطبة في : نفع الطيب للمقري ج ١ ص ١٧٢ ، ١٧٢ .

الولاية متأخراً عن الصلة . على أنه قد أُنذرك — أبقاه الله — خصوصاً للمشاركة في السرور الذى كان عنده — لا أعدمه الله المسرة — ثم أُنذرت من قبل إبلاغاً في التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاعت عليك فيه المعذرة . واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبتك عليه ، فأعيت عليك الحججة . فعرفنى — أكرمك الله — ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذى سر به ، ورجب المشاركة فيه ؛ لنعرفه — أبقاه الله — بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة إليه إن شاء الله تعالى .

وقد أجابه أبو إبراهيم كاتباً :

« سلام على الأمير سيدي ورحمة الله . قرأت — أبقى الله الأمير سيدي — هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توفى لنفسي ، إنما كان لأمر المؤمنين سيدنا — أبقى الله سلطانه — لعلى بمذهبه ، وسكوني إلى تقواه ، واقتفائه لأثر سلفه الطيب ، رضوان الله عليهم ؛ فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتنونها بما يشينها ، ولا يغض منها ، ويترك إلى تنقيصها ؛ يستعدون لدينهم ، ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم . فلهدأ تخلفت ، ولعلي بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى » (١) .

ومن أمثلة المحاورات ما دار بين الناصر وابنه الحكم بشأن منذر بن سعيد . وكان هذا الفقيه قد انتقد الناصر في إسرافه في تشييد قصر الزهراء ، حتى شغل بها عن شهود الجمعة ثلاث مرات . وكان مما انتقد به الفقيه الخليفة ، ابتداءه خطبة حضرها الخليفة بقوله تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » . فغضب الناصر وأقسم ألا يصلى الجمعة وراء منذر — وكان قاضى مسجد الزهراء — وشرع يصلى وراء قاضى الجماعة بمسجد قرطبة .

(١) اقرأ الرسائلين وتصبهما في : نفع الطيب ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

وقد قال الناصر لابنه في ذلك :

« والله لقد تعمدتى منذر بخطبته ، وما عنى بها غيرى ، فأسرف على ، وأفرط فى  
تقريعى وتفريعى ، ولم يحسن السياسة فى وعظى ، فزعزع قلبى وكاد بعصاه يقرعنى » .

فقال الحكم :

« فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك ، والاستبدال بغيره منه إذكرهته ؟ »

فجزره الناصر وقال :

« أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه — لأم لك — يعزل لإرضاء نفس  
ناكبة عن الرشده ، سالكة غير القصد ؟ ! هذا ما لا يكون . وإنى لأستحى من الله ألا  
أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمع شفيحاً مثل منذر فى ورعه وصدقه ، ولكنه أخرجنى  
فأقسمت ، ولوددت أن أجد سبيلاً إلى كفارة يمينى بملكى ؛ بل يصلى بالناس حياته  
وحياتنا ، إن شاء الله تعالى . فما أظننا نعاوض منه أبداً » <sup>(١)</sup> .

ومن المحاورات الطريفة ، تلك المحاورة التى دازت بين الناصر ومنذر نفسه ، وكان  
الناصر قد أبدع فى تزيين قبة بالذهب والفضة ، حتى جعلها تخطف الأبصار ، وسأل  
ذات يوم جلساءه من الوزراء والحاشية عنها ، فأكبروا وصنعوا وأثنوا عليه . ثم دخل عليهم  
منذر بن سعيد ، فلما جلس سأله الناصر عن القبة كما سأل غيره ، فقال له : « يا أمير  
المؤمنين ، ما ظننت أن الشيطان — لعنه الله — يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تتمكن من  
نفسك هذا التمكين — مع ما أتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين —  
حتى يتزلك منازل الكافرين » .

فانفعل الناصر وقال له :

« انظر ماذا تقول ، وكيف أنزلنى منزلهم » .

(١) اقرأ هذه المحاورة وقصتها فى : نفع الطيب ج ١ ص ٦٦ ، ٣٦٧ .

فقال له منذر :

« نعم أليس تعالى يقول : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون » .

فوجم الخليفة ، وأطرق ثم قال :

« جازاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيراً ، وعن الدين والمسلمين أجلّ الجزاء ، وكثر من أمثالك ؛ فالذى قلت هو الحق »<sup>(١)</sup> .

### (ب) النثر التأليفي :

قد ظهر هذا النوع من النثر خلال فترة الخلافة في صورتين ، أو تمثل حينذاك في فرعين ، الفرع الأول : التأريخ الأدبي ، والفرع الثاني : التأليف الأدبي أما الفرع الأول ، فكان تأريخاً ساذجاً بطبيعة الحال ؛ فهو مزيج من التراجم ، والأخبار ، والمختارات ، والحديث عن الشعر والشعراء . ومن أمثلة ذلك ما ألفه عثمان بن ربيعة القرطبي باسم « طبقات الشعراء بالأندلس »<sup>(٢)</sup> . وما ألفه محمد بن هشام المرواني باسم « أخبار الشعراء بالأندلس »<sup>(٣)</sup> . ثم ما ألفه عبد الله بن محمد بن مغيث بعنوان « شعر الخلفاء من بنى أمية »<sup>(٤)</sup> . وأخيراً ما ألفه أبو عمر أحمد بن فرج الجياني بعنوان « الخدائق » . وقد ألف الجياني هذا الكتاب للحكم المستنصر ، وأودعه مختارات من أشعار الأندلسيين في الحب . معارضاً بذلك كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني . وقد تضمن هذا الكتاب

(١) اقرأ هذه المحاورة وقصتها في : نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٨ . وزاد في هذا المصدر أن الناصر « قام عن مجلسه ذلك وهو يستنفر الله تعالى . وأمر بنقض سقف القبة » .

(٢) انظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٨٥ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، وجذوة المقتبس ترجمة ١٩٥٩ ، ونفع الطيب ج ٣ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) انظر : الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٥٤٦ ، وتاريخ الفكر ص ٢٨٦ .

بالإضافة إلى ذلك كثيراً من أخبار الشعراء الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجرى<sup>(١)</sup> .  
 ومن المؤسف أن أكثر هذه المؤلفات قد ضاع<sup>(٢)</sup> . ولم يبق مما فقد إلا مقتبسات  
 في كتب ألفت بعد ذلك . ومع ضياع أكثر هذه الكتب يلاحظ أن هذا النوع من التأليف  
 قد جاء متأثراً بنظيره في المشرق ؛ فمثلاً يلاحظ أن كتاب عثمان بن ربيعة « طبقات الشعراء  
 بالأندلس » قد حمل الاسم الذي سبق به ابن سلام في كتابه « طبقات الشعراء » . كذلك  
 يلاحظ أن كتاب عبد الله بن مغيث « شعر الخلفاء من بني أمية » قد عمل صاحبه  
 ما عمله الصولي في كتابه « الأوراق » الذي تناول فيه شعر بني العباس . وأوضح من ذلك  
 كله في تأثر الأندلسيين في هذا النوع من التأليف بإخوانهم المشارقة ، « كتاب الحدائق »  
 الذي ألفه ابن فرج الجياني ؛ فقد قال فيه الحميدى صاحب جذوة المقتبس : إنه  
 عارض فيه كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني ، إلا أن أبا بكر إنما ذكر  
 مائة باب ، في كل باب مائة بيت . والجياني أورد مائتي باب . في كل باب مائتي بيت .  
 ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً<sup>(٣)</sup> .

ويستفاد من حديث الحميدى ، أن الأندلسيين مع تأثرهم بالمشاركة في هذا الفرع  
 الأدبي كانوا يحاولون التفوق على سابقيهم المشارقة ، وكانوا أحياناً يتفوقون فعلاً . وهم في كل  
 ذلك مدفوعون بروح القومية الأندلسية التي كانت تدعوهم دائماً إلى تأكيد ذواتهم وإبراز  
 جهود بلدهم .

وأما الفرع الثاني من فروع النثر التأليفي وهو فرع التأليف الأدبي فنعني به تأليف  
 كتب أدب بمفهوم القرن الثالث والرابع لكافة أدب ؛ فقد كان الأدب يعني في تلك

(١) انظر : جذوة المقتبس ترجمة رقم ١٧٦ .

(٢) توجد نسخة مخطوطة من كتاب (طبقات الشعراء بالأندلس) في مدينة فاس (تاريخ الفكر  
 الأندلسي ص ٣٨٥) .

(٣) جذوة المقتبس . ترجمة رقم ١٧٦ .

الفرة ، الثقافة العربية الخالصة . التي تتمثل في كل ما يكون به التأديب والتهديب . وعلى هذا جاء كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الكامل للمبرد . وكتاب الأملى لأبي علي القالي ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني . فكلها كتب أدب بمعنى كتب ثقافة عربية خالصة ، يكون بها التأديب والتهديب والتثقيف . وقد جمعت هذه الكتب بين مختارات الشعر والنثر ، وبين التاريخ والطرائف ، وبين اللغة والرواية ، وبين البلاغة والنقد ، وما إلى ذلك من فروع الثقافة العربية الخالصة . وكانت تلك الكتب مع اشتراكها في الطابع الثقافي العربي العام ، تفرقت فيما بينها تبعاً لميل صاحبها إلى فرع معين من فروع الثقافة ، ومن هنا كان الغالب على البيان والتبيين مثلاً طابع البلاغة . وعلى الكامل والأملى طابع اللغة ، وعلى الأغاني طابع التراجم والشعر الغنائي . وقد أسهم الأندلسيون خلال فترة الخلافة في هذا الفرع الأدبي بكتاب قيم هو كتاب :

#### العقد الفريد

وقد ألفه أحمد بن عبدربه الشاعر والأديب الأندلسي المعروف . وهو كتاب أدب بهذا المعنى القديم لكلمة أدب ، ذلك المعنى الذي كان شائعاً في القرنين الثالث والرابع ، والذي في ظلاله ألف الجاحظ والمبرد والقالي وأبو الفرج . فهو كتاب ثقافة عربية عامة ، يجمع بين التاريخ والأخبار والمختارات الشعرية والنثرية ، ويتعرض للبلاغة والنقد والعروض والموسيقى والأخلاق والعادات .

وقد قسم ابن عبدربه كتابه إلى خمسة وعشرين باباً ، وسمى كل باب باسم حبة من حبات العقد الحقيقي ، وجعل تلك الأبواب في ترتيبها كحبات العقد المنظوم في ترتيبه فهو يبدأ عقده بكتاب التولية في السلطان ، ثم يثنى بكتاب الفريدة في الحروب ومدارها ، ثم يتبع ذلك بكتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد ، ثم بكتاب الجمانة في الوفود ، ثم بكتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ، ثم بكتاب الياقوتة في العلم والأدب ،

ثم بكتاب الجوهرة في الأمثال ثم بكتاب الزمردة في المواعظ والزهد ، ثم بكتاب الدرّة في التعازي والمرآة . ثم بكتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ، ثم بكتاب العسجدّة في كلام الأعراب ، ثم بكتاب المجنبة في الأجوبة . وهنا تأتي الواسطة في الخطب . وبعد الواسطة تأتي أبواب بتلك الأسماء السابقة ، كأنها حبات ممانلة تأتي على الجانب الآخر من واسطة العقد الحقيقي . فيأتي بعد الواسطة كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة ، ثم كتاب العسجدّة الثانية في الخلفاء وتاريخهم وأيامهم ، ثم كتاب اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ، ثم كتاب الدرّة الثانية في أيام العرب ووقائعهم ، ثم كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعته ومخارجه ، ثم كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي ، ثم كتاب الياقوتة الثانية في علم الألحان والاختلاف فيه ، ثم كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن ، ثم كتاب الجمانة الثانية في بيان المنتبئين والموسمين والبخلاء والطفيليين ، ثم كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان ، ثم كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب ، ثم كتاب اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح .

وهكذا ينتهي آخر باب في العقد بلؤلؤة كما بدأ أول باب بلؤلؤة ، تماماً كما ينتهي أي عقد بحبة ممانلة للحبة التي بدأ بها .

ويلاحظ من هذا العرض السريع لأبواب الكتاب ، طبيعة المادة التي يحويها . وأكثر مواد الكتاب تتصل بالمشرق وتاريخه وسير أعلامه وأخبار فنانيه . والقليل جداً من مواد العقد هو ما يتصل بالأندلس . وهذا ما حدا بالصاحب بن عباد إلى القول عن هذا الكتاب : « هذه بضاعتنا ردت إلينا»<sup>(١)</sup> .

والسبب في إيراد المؤلف كتابه على هذا النحو المشرقى ، هو أنه أراد أن ينقل إلى

(١) انظر : معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

مواطنيه ثقافة عامة عن المشرق تغنيهم عن الرجوع إلى كثير من الكتب وعديد من المراجع . كما أن المؤلف أراد أيضاً أن يبين تفوق الأندلسيين حتى في الثقافة المشرقية نفسها .

أما مصادر كتاب ابن عبد ربه . فهي كثيرة متنوعة ، قد اتصل بها المؤلف بما أتيج له من ثقافة واسعة وعمر مديد . وفي مقدمة تلك المصادر « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، « البيان والتبيين » و « البخلاء » و « الحيوان » للجاحظ ، و « الكامل » للمبرد ، و « طبقات الشعراء » لابن سلام ، و « السيرة » لابن هشام ، و « كليلة ودمنة » لابن المقفع . هذا إلى كثير من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين<sup>(١)</sup> .

ولابن عبد ربه طريقتة في العرض ؛ فهو دائماً لا يأتي بالسند ، على عكس صاحب الأغاني . وهو أحياناً لا يدقق فيما يروى من أخبار . ثم هو غالباً يتبع ما يورد من نصوص شعرية بشعر له هو .

والكتاب عظيم القيمة من النواحي التاريخية والأدبية والعلمية ، وهو ذخيرة أدبية حافلة بالنصوص القيمة شعراً ونثراً في شتى الفنون والأغراض والمواقف ، وهو موسوعة ثقافية عربية عامة ، فيها اللغة وفيها النقد وفيها العروض ، بل فيها الموسيقى . وهو إلى ذلك مصدر لمعرفة كثير من تاريخ الأندلس وأخبار حكامها وعادات أهلها . والكتاب بعد ذلك كله أهم مرجع لفن ابن عبد ربه ؛ فهو يشتمل على نماذج كثيرة من شعره ونثره . هذا ، والكتاب لم يكن يوصف « بالفريد » في أيام صاحبه ، وإنما كان يسمى بالعقد . وقد أضاف بعض المتأخرين الوصف بالفريد ، فعرف من يومها « بالعقد الفريد » . فقد ذُكر الكتاب في كل المراجع القديمة مجرداً من هذا الوصف ؛ ذكره الضبي في « بغية المتتمس » قائلاً عن ابن عبد ربه : « وله الكتاب الكبير المسمى العقد في الأخبار » . وذكره ياقوت في « معجم الأدباء » بنفس الاسم فقال عن المؤلف : « وهو صاحب

(١) اقرأ تحليلاً وانياً لمواد العقد في كتاب الأستاذ جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده .

كتاب العقد في الأخبار» . وكذلك كل المؤلفين المتقدمين لم يذكرها كلمة « فريد» التي اشتهر بها كتاب «العقد» فيما بعد ، مثل ابن شرف القيرواني ، والفتح بن خاقان ، وصاعد التطيلي ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، وابن بسام . ولعل أول من ذكر كلمة « فريد» هو الأبشيهي صاحب « المستطرف في كل فن مستظرف» . وربما كان ذكر الأبشيهي لتلك الصفة بدافع تكوين سجعة ، فهو يقول في كتابه : « ونقلت كثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد ، ورجوت أن يجد مطالعه كل ما يقصد ويريد»<sup>(١)</sup> .

وليس من شك في أن ابن عبد ربه قد أخرج هذا الكتاب في صورته الكاملة أيام الناصر ، بل إن هذا الإخراج كان بعد أن تلقب الناصر بلقب أمير المؤمنين<sup>(٢)</sup> أي بعد سنة ٣١٦ هـ ؛ لأن ابن عبد ربه يخلع على الناصر هذا اللقب . ومع هذا فالمرجح أن المؤلف قد بدأ في عمل هذا الكتاب قبل عهد عبد الرحمن الناصر ؛ لأن الأرجوزة العروضية التي فيه محتومة بالدعاء للأمير عبد الله<sup>(٣)</sup> . ولعل ابن عبد ربه كانت لديه بعض مواد الكتاب قبل تأليفه بصورته التي هو عليها الآن ، وكان من تلك المواد ما أعده قبل عهد الخلافة ، ومنها ما أعده أيام الخلافة ، ثم جمع ذلك ونسقه وكمله وأخرجه في هذا «العقد»<sup>(٤)</sup> .

ونثر ابن عبد ربه — كما يبدو من كتابه — نثر جيد خال من التكلف ، أقرب إلى الوضوح والسلاسة ، مع ميل شديد إلى الاقتباس والاستشهاد وإيراد مأثور القول ، ومع

(١) انظر في هذا ، التحقيق المفصل الذي كتبه جبرائيل جبور عن كتاب العقد ، في كتابه القيم ، ابن

عبد ربه وعقده .

(٢) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

(٣) انظر : العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٤ .

(٤) طبع كتاب العقد عدة مرات في مصر منها : طبعة بولاق سنة ١٢٩٢ . وطبعة الثمانيّة سنة ١٣٠٢ .

وطبعة الشرفيّة سنة ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ . وطبعة الأزهرية سنة ١٣٣١ . وأحسن طبعة هي التي أخرجتها لجنة التأليف بتحقيق الأساقفة : أحمد أمين وإبراهيم الإيجاري وأحمد الزين .

رغبة في التزيين والسجع في بعض الأحيان . وهذا نموذج من كتاب العقد ، يصور طريقة ابن عبد ربه وأسلوبه ، ويعطى فكرة عن آرائه في الأدب وتأليفه . يقول ابن عبد ربه في مقدمة العقد :

« . . . وبعد ، فإن أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أمة ، قد تكلموا في الأدب وتفلسفوا في العلوم على كل لسان ومع كل زمان . وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته ؛ وبذل مجهوده ، في اختصار بديع معاني المتقدمين ، واختيار جواهر ألفاظ السالفين ، وأكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار ، والمختصر إلى اختيار . » ثم إنى رأيت آخر كل طبقة . وواضعى كل حكمة ، ومؤلفى كل أدب أعذب ألفاظاً ، وأسهل بنية ، وأحكم مذهباً ، وأوضح طريقة من الأول ؛ لأنه ناقض متعقب ، والأول بادئ متقدم .

« فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة ، والكتب المترجمة ، بعين إنصاف ، ثم يجعل عقله حكماً عادلاً ، ويفصلاً قاطعاً ؛ فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع ، طيبة المنبت ، ذكية التربة ، يانعة الثمرة ؛ فنأخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوة ، ومنهاج من الحكمة ؛ لا يستوحش صاحبه ، ولا يضل من تمسك به .

« وقد ألفتُ هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخيرات جواهر الأدب ، ومحصل جوامع البيان ؛ فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب . وإنما لى فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش في صدر كل كتاب . وما سواه فأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه ، وقد قالوا : اختيار الرجل وافدٌ عقله .

« وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلاً على الليب اختياره

« وقال أفلاطون :

سقول الناس مذفونة في أطراف أقلامهم ، وظاهرة في حسن اختيارهم . فنظلت نطائر الكلام : وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادير الأمثال ، ثم فرنت كل جنس منها إلى جنسه ؛ فجعلته باباً على حدة ، ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره في كل باب .

« وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهرأ ، وأظهرها رونقأ ، وألطفها معنى ؛ وأجزئها لفظأ ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها حلاوة وطلاوة ؛ آخذ بقول الله تبارك وتعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون . وقال ابن سيرين : العلم أكثر من أن يحاط به ، فخذوا من كل شيء أحسنه . وفيما بين ذلك سقط الرأى وزلل القول ، ولكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة .

« وقيل للعتابي : هل تعلم أحداً لا عيب فيه ؟ قال : الذي لا عيب فيه لا يموت أبداً ، ولا سبيل إلى السلامة من السنة العامة . وقال العتابي : من قرض شعرا أو وضع كتابا فقد استهدف للخصوم واستشرف للألسن ، إلا من نظر فيه بعين العدل وحكم بغير الهوى ، وقليل ما هم .

« وحذفتُ الأسانيد من أكثر الأخبار ، طلبا للاستخفاف والإيجاز ، وهرباً من التثقيب والتطويل ؛ لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادير ، لا ينفعها الإسناد باتصاله ، ولا يضرها ما حذف منها . وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث عن سنة متبعة ، وشريعة مفروضة ؛ فكيف لا تحذف من نادرة شاردة ، ومثل سائر ، وخبر مستطرف ، وحديث يذهب نوره إن طال وكثر ؟ ! . سأل حفص بن غياث الأعمش عن إسناد

حديث ، فأخذ بملقه وأسنده إلى حائط وقال : هذا إسناده ! ! . وحدّث ابن السّمك  
بحديث ، فقيل له ما إسناده ؟ فقال : هو من المرسلات عرفاً ، وحدّث الحسن البصرى  
بحديث ، فقيل له : يا أبا أسعد ، عن ؟ قال وما تصنع بعمن يا ابن أخي ؟ أمّا أنت  
فنالتك موعظته ، وقامت عليك حجته .

« وقد نظرتُ في بعض الكتب الموضوعية ، فوجدتها غير متصرفة في فنون الأخبار ؛  
ولا جامعة بلحّل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه  
العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد  
من الشعر ، مجانس الأخبار في معانيها . وتوافقها في مذاهبا ، وقرنت بها غرائب من  
شعري ، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه ،  
حفظاً من المنظوم والمثور » (١) .

---

( ١ ) انظر العقد الفريد . المقدمة .